مجلة جامعة الخليل للبحوث
المجلد (5)، العدد (1)، ص (73-98)، 2010

الصفحة الإلكترونية للمجلة
http://www.hebron.edu/journal

دراسة مقارنة لمسلكي النظَّام والجاحظ في مسألة الصَّرْفة

* رضوان الأطرش

كلية علوم الوحي والتراث الإنساني- الجامعة الإسلامية العالمية - ماليزيا

الملخـــص:

يتناول هذا البحث بالدراسة والتمحيص مسلكي النظَّام والجاحظ في مسألة الصَّرْفة، والتي عدَّها النظَّام جزءًا رئيساً لنظريته في إعجاز القرآن، منكراً بها نظم القرآن، ومثبتاً للإعجاز الغيبي. ثم تبعه الجاحظ بشكل جزئي وعدّها كذلك أحد جزأي نظريته في الإعجاز ولكن بمعنىً مختلف. لكن الخلاف بين مسلكي المفكِّرَيْن تمحور حول مفهوم النظم الذي ألغاه النظَّام من قائمة وجوه الإعجاز، بينما عده الجاحظ وجهاً رئيساً لذلك، وتعمَّق الخلاف بين الأستاذ وتلميذه حول تحديد مفهوم الصَّرْفة، وذلك ما يتناوله البحث حيث يخصص دراسته حول أوجه الاختلاف والتشابه بين مسلكي هذين العلمين حول مفهوم الصَّرفة، مع توضيح سر اختلاف الجاحظ مع شيخه النظَّام في معناها. ويتبع البحث منهج الاستقراء والتحليل والمقارنة بين موقفي النظَّام وتلميذه باعتبارهما رمزين من رموز المدرسة الاعتزالية.

Abstract :

This research in focuses on the methods of Al-Nadhdham and Al-Jahidh on the issue of (Divine Preclusion) As-Sarfah. However, An-Nadhdham, the philosopher, had viewed assarfah as a major part of his theory in the Qur'anic Inimitability but denied the coherence of the Qur'an and established the unseen Inimitability for the Qur'an. On the other hand, Al-Jahidh also believed in the Divine Preclusion but with different definition and established a disagreement with his teacher on the matter of coherence.

This research is aiming at exposing the secrets of opposing his teacher and revealing the features of agreement and disagreement between the two Mu'tazili figures on the eligibility of Divine Preclusion.

* بريد الباحث الإلكتروني : taallam@yahoo.com

المقدمة:

رغم الحجة العظمى للقرآن الكريم على العباد، ورغم إنزاله سبحانه كتابه على خير عباده، واستمرارية إعجازه، وتحديه للعرب والعجم، لأن يأتوا بمثله[1]، أو بعشر سور[2] ، أو بسورة [3]، مع توفر المقتضي عندهم وانتفاء المانع فعجزوا[4] ، إلا أن بعضاً من العلماء ادعوا أن من وجوه الإعجاز القرآني، ما يكمن في صرف الله للعرب عن الإتيان بمثل كتابه، وهذا يعني أن القرآن غير معجز بذاته، ومن الذين سلكوا هذا المسلك إبراهيم بن سيار النظَّام، ثم تبعه تلميذه الجاحظ، ثم لحق بركبهم عدد لا بأس به من علماء الفكر الإسلامي.

والمدقق يجد أن النظَّام[5] استقى قوله هذا من الكتب الهندية [6] واليونانية التي ترجمت في العصر العباسي؛ إذ كان محباً للمطالعة لكتب الفلاسفة، ثم أخذ يخلط بين أفكار المعتزلة[7] والفلاسفة. وشجعه ذلك على أن يقيس ويقول ما قال، مسقطاً القداسة عن القرآن الكريم. ولربما يكون هذا جزءًا من الأسباب التي أسخطت الجماهير الإسلامية على المعتزلة عموماً، وعليه خصوصاً، وجعلت معظم الآثار التفسيرية للمعتزلة مفقودة، وإن تلمست الموجود منها، فتكاد تحصره في تفسير الكشاف للإمام الزمخشري، غير أننا لا نجد كتاباً واحداً من كتب النظَّام العديدة.

ومهما يكن من أمر، فإنّ المعتزلة يعتقدون أنّ القرآن كتاب مخلوق، ثم دفعت هذه العقيدة رجالها إلى القول بكل جرأة: ما دام القرآن مخلوقاً، فلا فرق عندنا بين مخلوق ومخلوق، وبين كلام وكلام.

هذا يعني أن القرآن الكريم ليس له قداسة في نظمه وآيه وسُوَرِه، وأن الإعجاز يكمن في صرف الله بقدرته للعباد عن الإتيان بمثله، مع إمكانية واضحة للعربي الفصيح أن يأتي بمثل آيه وسوره ونظمه.

أما رؤية الجاحظ للإعجاز القرآني، فقد كانت من شقين: الأول: النظم[8] ، أي أن الإعجاز القرآني ذاتي وليس لأمر خارج عنه، وبهذا يكون الجاحظ قد ضرب برأي أستاذه النظَّام عرض الحائط. والثاني: الصَّرفة، وقد حدَّدها برؤية ذكية، لعله قصد منها السلامة لنفسه، حين قال: إن الله صرف الناس عن الإتيان بمثله تدبيراً، وحتى يكون القرآن بعيداً عن تلاعب المتلاعبين.

ومن جهة أخرى، فقد أنكر القاضي عبد الجبار المعتزلي (ت سنة415هـ) الملقب عند المعتزلة بـ «قاضي القضاة»[9] أو «شيخ القضاة»[10] على النظَّام مسلكه، منكراً لمبدأ الصرفة، ومعارضاً لفكرة التسوية بين القرآن وبين الكتب السابقة، حيث لم يتم التحدي بها، ولم يصفها بما وصف به القرآن. يقول: «واختلف العلماء في وجه دلالة القرآن: فمنهم من جعله معجزاً؛ لاختصاصه برتبة في الفصاحة، خارجة عن العادة، وهو الذي نظرناه وبينا مذهب شيوخنا فيه، ومنهم من قال لاختصاصه بنظم مباين للمعهود عندهم صار معجزاً، ومنهم من جعله معجزاً من حيث صرفت هممهم عن المعارضة، وإن كانوا قادرين متمكنين، ومنهم من جعله معجزاً لصحة معانيه واستمرارها على النظر، وموافقتها لطريقة العقل»[11] . فهو يصرح هنا بمخالفة النظَّام؛ لأنّه يرى أنّ القرآن الكريم معجز في جزالة لفظه وحسن معناه لفصاحته، لأنه بالفصاحة يتفاضل الكلام... إلخ وليس بالصرفة.

وعلى كل، أرى لزاماً عليَّ أن أشير إلى أن من الدراسات السابقة لبحثي ما كتبه الدكتور سامي عطا الله، حيث نشر بحثًا على الشبكة العنكبوتية «الإنترنت»، عنوانه: الصرفة دلالتها لدى القائلين بها وردود المعارضين، وهو بحث رصين، استفدت منه، حيث تم فيه مناقشة أدلة المؤيدين والمعارضين للصرفة، لكن بحثي خلا من هذا، وكان تركيزه على إحداث مقارنة بين مسلكي الجاحظ والنظام لمفهوم

الصرفة.

فإن من أهداف هذا البحث الجلية، بيان مقصود الصّرفة، وإبراز البون بين مسلكي النظّام والجاحظ رغم انتمائها لمدرسة الاعتزال، متكئاً على منهجي الاستقراء والتحليل في جمع المعلومات ودراستها وتحليلها بشكل علمي، وسأبحث هذه المسائل في بحثي هذا، مقسماً إياه إلى مقدمة، وأربعة مباحث، وخاتمة.

المبحث الأول: تحديد مفهوم الصرفة ونشأتها التاريخية:

المطلب الأول: تحرير مفهوم الصرفة لغة واصطلاحاً:

أولاً: تحرير مفهوم الصرفة لغة: قد ورد في معجم «مقاييس اللغة» أن «صرف» تدلّ على رجع الشيء، ومن ذلك قولهم: صرفتُ القوم صرفًا وانصرفوا، أي إذا رَجَعْتَهم فرَجَعُوا، والصَّرف في القرآن: التوبة[12] ؛ وقال الزمخشري: لا يقبل الله تعالى له صرْفاً، أي توبة[13] ، لأنه يُرجع به عن رتبة المذنبين، واستشهد ابن فارس بقول الخليل: الصَّرف: فَضْل الدّرهم على الدرهم في القيمة، ومعنى الصَّرف عندنا: أنه شيء صُرف إلى شيء، كأن الدِّينار صُرف إلى الدّراهم، أي رُجع إليها، إذا أخذت بدَله، ومنه اشتُقّ: اسم الصَّيرفي: لتصريفه أحدهما إلى الآخر، وصَرْف الكلام: تزيينه والزِّيادةُ فيه، وإنما سُمّي بذلك؛ لأنه إذا زُيّن صَرَف الأسماعَ إلى استماعه[14].

وعليه فإن مادة (صرف) عند أهل اللغة يدور معناها حول الرجوع والتحول والتقلب، والمنع من جهة إلى جهة أخرى .

ثانياً: الصرفة في الاصطلاح: يتمحور حول ما يلي:

هي التعجيز مع توهم القدرة من العرب على الإتيان بمثل القرآن[15] .

المطلب الثاني: النشأة التاريخية لمفهوم الصرفة:

إذا اعتبرنا أن الصرفة تجرءاً على كتاب الله فإن هذه السنة ابتدعها اليهودي لبيد بن الأعصم[16] ، حيث يعد أول رجل تجرأ على الكتب السماوية بشكل عام، وكان يقول: إن التوراة مخلوقة، فالقرآن كذلك مخلوق [17] . لكنه مخلوق كما خلق الله تعالى الأشياء كلها، وهو داخل في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[18] واستشهاده هذا ناقص؛ لأنه لم ينظر إلى السياق الذي ذكرت فيه الآية، وعلى هذا فتوجيه الآية وتخريجها أنه تعالى خالق كل شيء مخلوق، كما في قوله تعالى في ريح قوم هود: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾[19] فالمراد تدمر كل شيء قابل للتدمير، فإنها لم تدمر الجبال و البيوت .

ثم أخذ هذه الفكرة عن لبيد ابن اخته المدعو طالوت وأشاعها، فقال بها بنان بن سمعان الذي تنسب إليه البنانية[20] ، وتلقاها عنه الجعد بن درهم[21] ، وأخذ بعض الناس يرددون ما قاله الجعد، ويجحدون أشياء مما في القرآن، ويقولون: إن فصاحته غير معجزة، وأن الناس يقدرون على مثلها، وعلى أحسن منها، فضحى خالد بن عبد الله القسري بواسط يوم النحر بالجعد يوم النحر. وقال: يا أيها الناس، ضحوا، تقبّل الله ضحاياكم؛ فإني مضحٍ بالجعد بن درهم، إنه زعم أنّ الله لم يتخذ إبراهيم خليلا، ولم يكلم موسى تكليمًا، تعالى الله عما يقول الجعد بن درهم علوًا كبيرًا. ثم نزل فذبحه[23] .

وزيادة على ذلك، فإن بعض الذين تفلسفوا من المسلمين، قرأوا كتباً هندية، واطلعوا على أقوال البراهمة في كتابهم المعروف باسم «الفيدا»، وهو كتاب يشتمل على أشعار، ليس في كلام الناس شبه أو تماثل لها، ويقول علماء البراهمة: إن البشر يعجزون عن أن يأتوا بمثلها؛ لأنّ براهما صرفهم عن الإتيان بمثلها، وفي مقدور الخاصة محاكاته، ولكنهم ممنوعون احترامًا[24].

ولما دخلت الأفكار الهندية في عهد أبي جعفر المنصور ومن والاه من حكام بني العباس، تلقف الذين يحبون

كل وافد من الأفكار الغريبة، فدفعتهم الفلسفة إلى اعتناق تلك الأفكار، وتطبيقها على القرآن، وإن كان بمنطوقه ومفهومه لا ينطبق، فقال قائلهم: إن العرب إذ عجزوا عن أن يأتوا بمثل القرآن، ما كان عجزهم لأمر ذاتي من ألفاظه، ومعانيه ونسجه ونظمه، فهم الفصحاء والبلغاء والشعراء والأدباء، بل كان لأن الله تعالى صرفهم عن أن يأتوا بمثل القرآن.

وعلى كل، فقد شاعت في كتابات المؤلفين[25] نسبة القول بالصرفة إلى المعتزلة، وخصوصاً أبو إسحاق إبراهيم بن سيار الشهير بالنظَّام (ت سنة 224هـ)، فقد ذهبوا إلى أن القرآن حق، ولكن تأليفه ونظمه ليس بحجة، وأن عدم معارضة العرب للقرآن لم تأت من ناحية إعجازه البلاغي في زعمهم، بل جاءت بسبب عدم اكتراث العرب بهذه المعارضة، ولو أنهم حاولوها لنالوها، وبسبب خارجي عن القرآن، وهو وجود مانع منعهم منها قهراً، ذلك المانع هو حماية الله لكتابه، وحفظه إياه من معارضة المعارضين، وإبطال المبطلين، ولو أن هذا المانع زال، لجاء الناس بمثله؛ لأنه لا يعلو على مستواهم في بلاغته ونظمه[26].

وعليه، فإن رواج تلك الفكرة، أدى إلى أمرين:

الأمر الأول: الاعتقاد بأن القرآن الكريم ليس في درجة من البلاغة والفصاحة تمنع محاكاته، وتعجز القدرة البشرية عن أن يأتي بمثله، فالإعجاز ليس من صفات القرآن الذاتية.

والأمر الثاني: الحكم بأن القرآن الكريم مخلوق[27].

المبحث الثاني: معالم شخصيتي النظَّام والجاحظ

المطلب الأول: معالم شخصية النظَّام[28]:

انتهى القرنان الأول والثاني، دون حديث خاص عن وجوه إعجاز القرآن، فلما بدأ القرن الثالث، تسللت إلى جوانب وربوع البيئة الإسلامية والعربية الثقافات الغريبة عن أمتنا، مثل الثقافة والفلسفة اليونانية والهندية، ودب الخلاف المذهبي، وقويت الخصومات وازداد عنف الجدل حول الآراء الكلامية، وكان إعجاز القرآن أحد الميادين الكثيرة التي تبارت فيها العلماء، وبدأ الحديث عن سبب عجز العرب عن الإتيان بمثل أقصر سورة من سور القرآن، فبرز قول غريب في البصرة التي كانت كالبحر يموج بالتيارات الفكرية المختلفة، مفاده: أن إعجاز القرآن ليس لشيء ذاتي فيه، وإنما هو لصرف الله العرب عن معارضته، وكان أول من أخذته العزة بهذا القول وتبناه وجاهر به ودعا إليه: إبراهيم بن سيار النظَّام، أحد شيوخ المعتزلة في البصرة، وعرف هذا القول فيما بعد بالصرفة[29].

فهذا أول معلم من معالم شخصية النظَّام، الشجاعة الجرأة وعدم الخوف، في تبني الآراء والدعوة إليها، وهكذا ينبغي أن يكون العلماء –وهذه محمدة عظيمة للعلماء بشكل عام– لكن الذي حصل عند النظَّام، أن الشجاعة تحولت إلى جرأة في تبني الأفكار والدعوة إليها، سواء أكانت فكرة ربانية أم شيطانية. كما أن من معالم شخصيته التمرد، حيث تتلمذ على يد خاله أبي الهذيل[30] العلاف في الاعتزال[31]، ثم انفرد عنه، وكوّن مذهباً خاصاً به، ولا ندري صحة ما يقولون: إن النوابع لا تعمِّر، ومنهم النظَّام الذي مات في ريعان شبابه عن ست وثلاثين عاماً. ويكفيه أن كان أستاذاً للجاحظ.

ومما يؤكد قولنا عنه في أن شخصيته قوية عنيدة متمردة، جريئة شجاعة في كل شيء أنه عاشر في ريعان شبابه قوماً من الثنوية[32] وقوماً من السمنية[33]، وخالط قوماً من ملاحدة الفلاسفة، ثم دون مذاهب الثنوية، وبدع الفلاسفة، وشبه الملاحدة في دين الإسلام، وأعجب بقول البراهمة بإبطال النبوات[34]، ولم يُخْفِ هذا القول رغم تسليط السيف على رقبته، فأنكر إعجاز القرآن في نظمه. وهذا ما عدّه عبد القاهر فضيحة تاريخية له: «والفضيحة الخامسة عشرة من فضائحه – أي النظَّام –: أن نظم القرآن

وحسن تأليف كلماته، ليست بمعجزة للنبي –صلى الله عليه وسلم– ولا دالة على صدقه في دعواه النبوة، وإنما وجه الدلالة منه على صدقه، ما فيه من الإخبار بالغيوب، فأما نظم القرآن وحسن تأليف آياته، فإن العباد قادرون على مثله، وعلى ما هو أحسن منه في النظم والتأليف»[35] . كل هذه الثقة وقلة الخوف والشجاعة جاءته من كثرة المطالعة لكتب الفلاسفة، لدرجة أنه خلط كلامهم بكلام المعتزلة، وانفرد عن أساتذته وأصحابه بمسائل منها: قوله في إعجاز القرآن: إنّه من حيث إخبارهُ عن الأمور الماضية، والآتية، ومن جهة صرف الدواعي عن المعارضة، ومنع العرب من الاهتمام به جبراً، وتعجيزاً، حتى لو خلاّهم لكانوا قادرين على أن يأتوا بسورة من مثله، بلاغة، وفصاحة، ونظماً[36][37] .

ومن الذين امتدحوه وبالغوا في مدحه الجاحظُ، حيث قال: «الأوائل يقولون في كل ألف سنة رجل لا نظير له، فإن كان ذلك فأبو إسحاق النظَّام»[38] . كيف لا وهو الذي تبحر في علوم الفلسفة، واطّلع على أكثر ما كتبه رجالها من طبيعيين وإلهيين، وانفرد بآراء خاصة، منها القول بالصرفة، وتابعته فيها فرقة من المعتزلة سميت النظَّامية نسبة إليه، ويكفي أنه أستاذ الجاحظ، ولو عاش أكثر من ست وثلاثين سنه لكان له ما يكون للعظماء على مستوى الإنسانية كلها.

المطلب الثاني: معالم شخصية الجاحظ:

هو العلامة المتبحر، وذو الفنون، أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب البصري المعتزلي، صاحب التصانيف. أخذ عن النظَّام. وكان من بحور العلم، حتى إنه كان يكتري دكاكين الكتبيين، ويبيت فيها للمطالعة، وكان داهيةً في قوة الحفظ[39]. وقد طالع الكثير من كتب الفلاسفة، وخلَط وروّج كثيراً من مقالاتهم بعباراته البليغة، وحسن براعته اللطيفة[40].

قال عنه الذهبي: يظهر من شمائل الجاحظ أنه يختلق[41] ، وقد كانت ولادته سنة (159) هجرية في خلافة بني العباس، وفي عهد الخليفة المهدي ثالث الخلفاء العباسيين. وكانت وفاته أيضاً في البصرة في خلافة المهتدي بالله سنة (255) هجرية، فعاصر بذلك (12) خليفة عباسياً هم: (المهدي والهادي والرشيد والأمين والمأمون والمعتصم والواثق والمتوكل والمنتصر والمستعين والمعتز والمهتدي بالله). ولقد عمّر الجاحظ نحو تسعين عاماً وترك كتباً كثيرة يصعب حصرها، وإن كان البيان والتبيين[42] ، كتاب الحيوان، البخلاء أشهر هذه الكتب.

ولد في مدينة البصرة ونشأ فقيراً، وكان دميماً قبيحاً جاحظ العينين. طلب العلم في سن مبكّرة، فقرأ القرآن ومبادئ اللغة على شيوخ بلده، ولكن اليتم والفقر حال دون تفرغه لطلب العلم، فصار يبيع السمك والخبز في النهار، ويكتري دكاكين الورّاقين في الليل، فكان يقرأ منها ما يستطيع قراءته. من أشهر شيوخه خمسة: ابن قتيبة الدينوري صاحب عيون الأخبار، حيث أخذ عنه علم اللغة العربية وآدابها، والأصمعي الراوية المشهور صاحب الأصمعيات وأبي زيد الأنصاري، ودرس النحو على الأخفش، وعلم الكلام على يد إبراهيم بن سيار بن هانئ النظَّام البصري.

ومهما يكن من أمر، فإنّ الدارس لكتب الجاحظ[43] يجد بشكل عام أنها تكلمت عن القرآن، من حيث صحة أخباره، وبديع نظمه، وقوة حججه. فتراه أحياناً يدافع من خلالها عن القرآن، ويبطل الشبهات[44] التي يقول بها الملاحدة والحاقدون، وكان يظهر شدة إعجابه بالعربية (لغة القرآن)، ويلاحق الشعوبيين[45] الذين يكرهون ويحسدون ويحقدون على العرب والعربية[46] . ويقوم مبدؤهم على استصغار الجنس العربي والاستخفاف به، والتهوين من شأن اللغة العربية والبيان العربي،

مما دفع الجاحظ إلى تأليف أكثر من كتاب في الرد على هذه الشبه وتفنيدها، ومنها كتاب: «البيان والتبيين» الذي أوضح فيه أصول البيان العربي بالمقارنة مع بيان الأمم الأخرى، واعتدال الأسس التي يقوم عليها هذا البيان العربي وجمالها[47] .

وعلى الرغم من دفاعه عن القرآن والعرب والعربية، إلا أن البعض أساء فهمه، وأتهمه بالميل للشعوبية؛ وذلك حين وصف العرب بأنهم أمة أمية، والتقى مع الشعوبيين في ذلك، ولكن قصدهم كان الإهانة، أما الجاحظ فقد كان قصده التكريم، وهذا ما أوضحه في كتابه البيان والتبيين حين قال: «العرب بأنهم كانوا أميين لا يكتبون، ومطبوعين لا يتكلفون، وذكر قولاً لشيخ بصري يقول فيه: «إن الله جعل نبيه أمياً لا يكتب، ولا يحسب، ولا ينسب ... ليتفرد الله بتعليمه»[48]. ويكفي الجاحظ امتداح ابن حزم له في مسألة الصدق حين قال عنه: رغم مجون الجاحظ وضلاله: «فإننا ما رأينا له في كتبه تعمد كذبة يوردها مثبتاً لها، وإن كان كثيراً لإيراد كذب غيره»[49] .

ولعل هذا وغيره من الأشياء التي جعلت الإمام الذهبي من القدامى يترحم على الجاحظ،[50] وجعلت الشهرستاني يقول عنه: إنه من فضلاء المعتزلة، «كان الجاحظ من فضلاء المعتزلة والمصنفين لهم وقد طالع الكثير من كتب الفلاسفة، وخلط وروج كثيراً من مقالاتهم بعباراته البليغة، وحسن براعته اللطيفة، وكان في أيام المعتصم والمتوكل»[51] . ومن المعاصرين من سماه شهيد القراءة، حيث يرى الأستاذ جودت سعيد، وهو يمتدح القراءة ورمزها الجاحظ أن الذكاء ليس أسمى من القراءة، وأن القراءة هي التي تقعد الأقزام على رقاب العمالقة، ويشير إلى شهيد العلم الجاحظ الذي سماه شهيد الكتاب والقراءة الذي مات تحت كتبه أنموذجاً لحرص الأمة الناجحة على القراءة والعلم[52].

وكان عبد القاهر البغدادي على خلاف معه، وعليه فقد جمع له فضائح وأخذ يرد عليها واحدة تلو الأخرى، ومن هذه الفضائح التي سجلها ضد الجاحظ: أنّ الله لا يدخل النار أحداً وإنما النار تجذب أهلها إلى نفسها بطبعها ثم تمسكهم في نفسها على الخلود. ويلزمه على هذا القول أن يقول في الجنة إنها تجذب أهلها إلى نفسها بطبعها، وإن الله لا يدخل أحداً الجنة، فإن قال بذلك قطع الرغبة إلى الله في الثواب، وأبطل فائدة الدعاء، وإن قال إن الله –تعالى– هو يدخل أهل الجنة الجنة، لزمه القول بأن يدخل النار أهلها[53]. وحتى أحدهم قال فيه شعراً قاسياً يهجوه:

لو يمسخ الخنزير مسخاً ثانياً

ما كان إلا دون قبح الجاحظ

رجل يتوب عن الجحيم بنفسه

وهو القذى في كل طرف لاحظ[54].

وكانت للجاحظ إشاراتٌ عن الإعجاز، فكان يتحدث عن حُجج القرآن، وحجج النبوة، لكنه كان يؤمن بأن الإعجاز في اللفظ، وأما المعاني فهي على قارعة الطّريق. وهذا ما ساقه في كتاب الحيوان يقول: «والمعاني مطروحةٌ في الطريق يعرفها العجميُّ والعربيُّ والبدويُّ والقرَوي والمدنيّ، وإنَّما الشأنُ في إقامة الوزن وتخيُّر اللفظ وسهولة المخرج»[55]. يعني أنَّ المعاني يتداولها الناس؛ لكن الشأن في الدلالة بالألفاظ على المعاني. وهذا لاشك أنه قصور لأنَّ القرآن كما ذكرنا مشتمل على فصاحة الألفاظ وعظمة المعاني جميعاً. وقال الجاحظ واصفاً بيان القرآن: «وعبت كتابي في خلق القرآن، كما عبت كتابي في الرد على المشبهة، وعبت كتابي في أصول الفتيا والأحكام، كما عبت كتابي في الاحتجاج لنظم القرآن، وغريب تأليفه، وبديع تركيبه»[56] .

ومن أهم كتبه التي تتكلم عن بلاغة القرآن ونظمه وإعجازه بعد كتابي البيان والتبيين، وكتاب الحيوان، كتاب نظم القرآن، وهذا الأخير كتاب مفقود، وإنما تشير إليه المراجع الأخرى من كتب الجاحظ نفسه،

أو من كتب غيره. يقول د. محمد خريبة عن كتاب نظم القرآن: «ويبدو أن الزمخشري أفاد منه حيث ألف تفسيره – كما يفهم من مقدمة كتابه الكشاف– ».[57]

وأنا أؤيد هذا الرأي؛ لأن إشارات الجاحظ عن الإعجاز والاستعارات، مما استشهد به الزمخشري كثيراً في تفسيره. يقول الزمخشري: «ثم إن أملأ العلوم بما يغمر القرائح، وأنهضها بما يبهر الألباب القوارح من غرائب نكتٌ يلطُف مسلكها، ومستودعاتُ أسرارٍ يدّق سلكها علم التفسير الذي لا يتم لتعاطيه وإجالة النظر فيه كل ذى علم ، كما ذكر الجاحظ في كتاب نظم القرآن».[58] واستشهد بإنشاده، حيث قال: «أنشد الجاحظ:

يُوحُونَ بالخُطَبِ الطِّوَالِ وتَارَةً
وَحْيَ المَلَاحِظِ خِيفةَ الرُّقَباءِ». [59]

وغير ذلك.

وقديماً أشار الباقلاني رحمه الله –سبحانه وتعالى– إلى هذا الكتاب وإن لم يورده في موضع الثناء، إذ رأى أنه لم يأت فيه بجديد يعول عليه، قال: «وقد صنف الجاحظ في «نظم القرآن» كتاباً لم يزد فيه على ما قاله المتكلمون قبله، ولم يكشف عما يلتبس في أكثر هذا المعنى».[60]

ومن المحدثين من تحدث عن كتاب نظم القرآن، منهم الدكتورة عائشة عبد الرحمن، تقول: «في القرن الثالث ظهرت كتبٌ في الإعجاز تحمل في الغالب عنوان– نظم القرآن– وللجاحظ كتابٌ بهذا الاسم لم يصل إلينا، وإن كان الجاحظ أشار إليه في كتابه «حجج النبوة»، كما أشار إليه الباقلاني في كتابه «إعجاز القرآن» .[61]

خلاصة الأمر: أن شخصية الجاحظ من خلال التدقيق والملاحظة، لها عدة معالم: أولاها أنها شخصية عقلانية بحتة، تقدِّس العقل وتحترمه وتقدمه على النص، مثله مثل سائر الشخصيات الاعتزالية، وثانيها أنه شخصية عروبية قومية – ولكن ليس بمفهومها العصري–، تدافع وتنافح عن أصالة العرب ولغتهم وآدابهم وتلاحق الشعوبيين. وثالثها أنه شخصية علمية مثقفة، وملم بالآثار الفارسية، عالم بقضايا قومه، ومهتماً بقضايا الآخرين وبتراثهم، حتى يكون على بينة، وهو يرد عليه، بل يتبنى قضايا عصره ويحدد بشكل واضح إشكالية النفس التواقة للمعرفة، كيف لا وهو ابن البصرة التي كانت مدينة الثقافة، بل يمكننا القول: إنها مدينة حبلى بالثقافات والأفكار، والمناظرات التي سجلتها كتب الأدب والفرق، والمذاهب التي انتشرت بسببها حركة الترجمة والنقل الكبرى للآثار اليونانية، التي بلغت أوجهها في صدر الدولة العباسية نتيجة لتشجيع الولاة والأمراء. فالجاحظ فيلسوف وفقيه، وقلما يجمع شخص واحد مثل هذه الصفات. لكن الفكر الاعتزالي السياسي الذي تبناه، طغى على معالم هذه الشخصية، رغم حبها البيِّن للعلم والثقافة. ورابعها: أنه كان متردداً، تارة يمدح وتارة يذم، ومن أمثلة ذلك ما كان من أمره مع شيخه النَّظام، فمرة يقول: كنا لا نرتاب بحديثه إذا تكلم عن سماعٍ أو عيان[62] ، وتارة ينتقد شيخه ويظهر عيوبه، لدرجة أنه يقول عنه: لا يستطيع أن يكتم سراً حتى لو أكد عليه صاحبه بعدم الإفشاء، قال الجاحظ: «وكان أبو إسحاقَ إبراهيمُ بن سيّار النظَّام أضْيقَ الناس صدراً بحملِ سرٍّ، وكان شرَّ ما يكون إذا يُؤكِّد عليه صاحبُ السر، وكان إذا لم يؤكِّدْ عليه ربما نسي القصَّةَ، فيسلمُ صاحبُ السرّ»[63] ، وتراه يقول عنه إنه سيء الظن، ولا يحسن القياس: «وكان إبراهيمُ مأمونَ اللِّسان قَليلَ الزَّلَل والزَّيغ في باب الصدق والكذب، ولم أزعم أنَّه قَليلُ الزَّيغ والزَّلَل على أنَّ ذلك قد كان يكونُ منه وإن كان قليلاً، وَإنما كان عيبُهُ الذي لا يفارقه سوءَ ظنِّه وجَودةَ قياسه عَلَى العارض والخاطر والسابق الذي لا يُوثَق بمثله»[64]ثم يقول

عنه: إنه كان يقيس على الظن، وينسى أن قاس على الظن، ثم يؤكد الأمر، وكأنه مبني على اليقين: «ولكنَّه كان يظنُّ ثمَّ يقيس عليه وينسى أنَّ بدءَ أمرِه كان ظَنّاً فإذا أتقنَ ذلك وأيقنَ جَزَم عليه وحكاهُ عن صاحبه حكايَةَ المستبصر في صحَّة معناه، ولكنّه كان لا يقول سمعت ولا رأيت، وكان كلامُه إذا خرج مخرج الشَّهادة القاطعة لم يشُكَّ السامعُ أنَّه إنَّما حكى ذلك عن سماعٍ قد امتحنه أو عن معاينة قد بهرته» .[65]

وباختصار: كان الجاحظ موسوعة تمشي على قدمين، وتُعتبر كتُبه دائرةَ معارف لزمانه، كتب في كل شيء تقريبًا؛ كتب في علم الكلام والأدب والسياسية والتاريخ والأخلاق والنبات والحيوان والصناعة والنساء والسلطان والجند والقضاة والولاة والمعلمين واللصوص والإمامة والحول والعور وصفات الله والقيان والهجاء.

المبحث الثالث: معالم نظرية الصرفة عند النظَّام والجاحظ:

المطلب الأول: معالم نظرية الصرفة عند النظَّام:

إن أول ما فعله النظَّام أنه نفي عن القرآن إعجازه، بل إنه جعل مستوى الخطاب في القرآن الكريم مساوياً لأيِّ كلام بليغ استحسنته العرب، الأمر الذي يعني أن لا فضل للقرآن في أسلوبه ونظمه وبيانه وموضوعانه على غيره؛ لأن العرب الفصحاء أصحاب المعلقات العشر، وسوق عكاظ، باستطاعتهم الإتيان بمثله، لكن الله بعظمته لا يريد أحداً من خلقه أن يساوي كلامه مع كلامه، ولهذا فقد منعهم بل بقوته العظمى التي لا طاقة لهم بدفها قهرهم. ومما قاله النظَّام رأس المعتزلة وعمدة المتكلمين، وأستاذ الجاحظ عن مذهب الصَّرْفة: «أن الآية والأعجوبة في القرآن، ما فيه من الإخبار عن الغيوب، فأما التأليف والنظم فقد كان يجوز أن يقدر عليه العباد، لولا أن الله منعهم بمنع، وعجز أحدثهما فيهم»[66].

وتلخيصاً لنظريته الإعجازية، أقول إنها في تصوري تتكون من شقين:

1. القرآن معجز من حيث الصَّرفة.
2. القرآن معجز من حيث الإخبار بالغيب، والحديث في هذا البحث منصب على الشق الأول.

وهنا نرى تأثر النظَّام بالفلسفة والتجربة والقياس، فقد قاس قدرة العرب على نظم الشعر بقدرتهم على إتيان كتاب من مثل القرآن، حيث رأى أن لا مانع من تأليف كتاب على نسق القرآن إلا إذا كان المانع ربانياً. الأمر الذي عدّه البغدادي فضيحة من فضائح النظَّام، لأنه جعل الإعجاز متعلقاً بالخالق سبحانه، وليس لعامل في ذات النص القرآني. ولربما لسبب ذكاء النظَّام الخارق، أحسَّ أن رأيه هذا يلبسه النقص والضعف، فأكمله بإضافة قضية الإخبار عن الغيوب إلى الإعجاز. لكن مجمل القول عنه: إنّه يُعَدّ أول من فَصَل بين شكل القرآن ومضمونه؛ وذلك بتصريحه بعدم إعجازية النظم، وعدّه الإخبار عن الغيب مزية، وهذا شيء عجاب.

ويقولون: ولرب ضارة نافعة. وما إن شاعت تلك المقولة والنظرية عنه، حتى استنفرت أمة القرآن بعقول علمائها لرد هذه التهمة عن القرآن، وبيان بطلانها، وكذلك لإبراز أوجه إعجاز القرآن الكريم المتعددة. حتى إن هذا الاتهام للقرآن، أثار حفيظة الجاحظ نفسه، ورد على النظَّام ودافع عن نظم القرآن، وفي كتاب كتبه إلى أحمد بن أبي دؤاد(ت 240 هـ)[67] يفند فيه ادعاءات النظَّام، «فكتبت لك كتاباً أجهدت فيه نفسي، وبلغت أقصى ما يمكن مثلي في الاحتجاج للقرآن، والرد على الطعان، فلم أدع فيه مسألة لرافضي، ولا لحديثي، ولا لحشوي، ولا لكافر مباد، ولا لمنافق مقموع، ولا لأصحاب النظَّام، ولمن نجم بعد النظَّام، ممن يزعم أن القرآن حق، وليس تأليفه بحجة، وأنه تنزيل وليس ببرهان ولا دلالة»[68] .

يتضح لنا من خلال هذه الفقرة، أن هناك بوناً واسعاً

بين مسلكي النظَّام والجاحظ في التعامل مع القرآن، وخصوصاً في مسألة الصرفة، كما يتضح لنا أن النظَّام يعادي فكرة أن القرآن معجز بنظمه، وأن تأليفه عادي يقوم بمثله فصحاء العرب، وكما يتجلى لنا أن غَيرةَ الجاحظ على نظم القرآن جعلته يتصدى لشيخه وينقض مفهوم الصرفة النظَّامي الذي يسلب القرآن بهاءه. والذي يتلخص في أن الناس كانوا قادرين على الإتيان بمثل القرآن، لولا أن منعهم الله بقدرته، وأحدث فيهم عجزاً، لذلك لم يجد هذا المفهوم قبولاً من الجاحظ.

لا شك أن ما بثه النظَّام من أفكار حول القرآن، وخصوصاً فكرة الصرفة، كان في غاية الخطورة؛ لأن فيها تَحد لكل فرد من أبناء الأمة الإسلامية؛ لأنه مس قداسة القرآن، ومكانته الإعجازية، الأمر الذي أدى إلى ردة فعل قاسية عليه وعلى حركته الاعتزالية، فأتلفت كتبه وغالبية تآليف وتصانيف رجالات المعتزلة، ولم يبق منها إلا تفسير الكشاف للزمخشري. وهذا في تصوري خسارة فادحة للمكتبة الإسلامية؛ وذلك بحرمانها من هذا التراث الضخم.

وهذا إن دل فإنما يدل على قوة شخصية هذا الرجل الذي لا يقبل بالتسليم بالمنقول والمأثور، حتى ولو كان من أحد شيوخه كواصل بن عطاء، فالنظَّام شخصيةٌ درست الفلسفة اليونانية، وتثقفت بالثقافة الهندية والفارسية، بل إنه تعلم المسيحية ولاهوتها، وكان ميّالاً إلى التجربة.

المطلب الثاني: معالم نظرية الصرفة عند الجاحظ:

يمكن تلخيص نظرية الإعجاز عند الجاحظ بما يلي:

1. القرآن بليغ من حيث ألفاظه المختارة المنتقاة، ومن حيث نظمه ورصفه، التي تقوم على إبداع في الإيجاز والتشبيه والمجاز. يقول الجاحظ: «وفي كتابِنا المنزّل الذي يدلُّنا على أنّه صِدْقٌ نَظْمُه البديع الذي لايقدر على مثله العباد»[69].

2. القرآن معجز من حيث الصرفة حيث إن العرب عجزوا عن الإتيان بمثل أسلوب القرآن، وهي تختلف عن نظرية الصرفة عند النظَّام، ولهذا فهو يرد عليه في كتابه نظم القرآن، فأساس نظرية الإعجاز، وعمود القول فيه بلاغته أولاً، أما القول بالصرفة فإنما تأتي في المرتبة الثانية، فهو دليل يضاف إلى دليل عجز العرب عن محاكاة القرآن في أسلوبه ونظمه. يقول فضل حسن عباس: «لقد وضع الجاحظ بحق بذوراً لنظرية الإعجاز التي تطورت فيما بعد، وإن كانت هذه البذور جاءت موزعة في مواضع من كتبه ومؤلفاته»[70].

والمدقق يجد أن مفهوم الصَّرفة عند الجاحظ ليس إلا نوع من التدبير الذي لا يمكن للعباد أن يدركوا كنهه ولو اجتمعوا بكل ما يملكون من طاقات ليفهموا شأنه، يقول الجاحظ: «ومثل ذلك ما رفع من أوهام العَرب وصرف نفوسهم عن المعارَضَة للقرآن بَعْدَ أنْ تحدَّاهم الرَّسولُ بنظْمه، ولذلك لم نَجِدْ أحَداً طمِع فيه، ولو طمِعَ فيه لتَكلفه، ولو تكلف بَعضهُمْ ذلك، فجاء بأمر فيه أدنى شُبهة، لعظمت القصَّة على الأعْراب، وأشباه الأعراب، والنِّساء وأشباه النساء، ولألقَى ذلك للمسلمين عملاً، ولطَلبوا المحاكمةَ والتراضي ببعض العرب، ولكثُر القيلُ والقال، فقد رأيتَ أصحابَ مُسيْلِمَة وأصحاب ابن النواحة إنما تَعَلّقُوا بما ألَّف لهُمْ مُسَيلمة من ذلك الكلام الذي يَعلمُ كلُّ مَن سَمعه أنَّه إنَّما عَدا على القرآن فسلَبه وأخَذَ بَعضَه، وتَعاطى أن يُقَارنَه فكان لله ذلك التَّدبيرُ الذي لا يبلغه العِبَادُ ولو اجتَمَعوا له» [71].

وعلى كل، فيرى الجاحظ أن القرآن معجز بنظمه، وهو ما انفرد به القرآن في صياغة أساليبه، لكنه يؤمن في الوقت نفسه بالصَّرْفة، باعتبار أن الله تعالى صرف العرب عن معارضته ورفعها من أوهامهم. ويقول موضحاً مقصوده من الصرفة: «وصرف

نفوسهم عن المعارضة للقرآن، بعد أن تحداهم الرسول بنظمه، ولذلك لم نجد أحداً طمعَ فيه، ولو طَمِع فيه لتكلَّفه، ولو تكلَّف بعضهم ذلك، فجاء بأمر فيه أدنى شبهة؛ لعظمت القضية على الأعراب وأشباه الأعراب، والنساء وأشباه النساء، ولألقى ذلك للمسلمين عملاً، ولطلبوا المحاكمة والتراضي ببعض العرب، ولكثر القيل والقال»[73]. ثم يأتي بنماذج تثبت صحة ما ادّعاه، ويضرب بعض الأمثلة، منها:

موت سليمان -عليه السلام-، حيث كان ميتاً قائماً معتمداً على عصاه، وعصاه ثابتة قائمة في يده، وهو قابض عليها، فلا هم [أي الشياطين] عرفوا سَجِيَّةَ وجوه الموتى، ولا هو إذا كان ميتاً، سقط سقوط الموتى، وما ظنوا، ولا ارتابوا، رغم أنهم كانوا في العذاب والعمل الشاق، ولولا الصرفة التي يلقيها الله على قلب من أحب، ولولا أنّ الله يقدر على أن يشغل الأوهام كيف يشاء، ويذكِّر بما يشاء، وينسِّي ما يشاء، لما اجتمع أهل داره وقصره ورَبَضه وخاصَّتُه ومن يخدُمه من الجنِّ والإنْس والشَّياطين على الإطباق بأنَّه حَيٌّ كذلك، كان عندهم فحدث ما حَدَثَ من موته فلمَّا لم يشعُروا به كانوا على ما لم يزالوا عليه فعلمْنا أنَّ الجنَّ والشّياطينَ كانت تُوهِم الأغبياء والعَوَامَّ والحُشْوَة والسِّفلة أنَّ عندهما شيئاً من علْم الغيب والشياطين لا تعلم ذلك فأراد اللّه أنْ يكشفَ من أمْرهم للجُهَّال ما كان كَشَفَه للعلماء»[74] .

أما النص الكامل لكلام الجاحظ، الذي يوهم أنه يقول بالصرفة، بمعنى أن وجه الإعجاز هو المنع وليس النظم - كما هو مفهومها المنسوب للنظام - فقد ورد هذا الكلام في سياق حديثه عن أنواع من صَرْف الله عباده عن أشياء كان بإمكانهم أن يدركوها، كالذي حدث ليعقوب بن إسحاق، «وكان أنْبه أهل زمانه؛ لأنه نبيّ وابن نبيّ، وكان يوسف بن يعقوب وزير مَلِك مصر، وكان من النباهة بالموضع الذي لا يُدفع ، وله البُرُد ، وإليه يرجع جُوّاب الأخبار، ثم لم يعرف يعقوب مكان يوسف، ولا يوسف مكان يعقوب»[75].

وكالذي حدث لموسى بن عمران -عليه السلام- وقومه في التيه، «إذ ظلوا يتكسّعون أربعين عامًا في مقدار فراسخ يسيرة، ولا يهتدون إلي المخرج، مع أن هذه البلاد التي تاهوا فيها هي من ملاعبهم، ثم هي عامرة بالأدّلاء من العسكر والجّمالين، والرسل والتجار، ولكن الله صرف أوهام موسى -عليه السلام- ومن معه عن البصر بالطريق الواصل بهم»[76].

وكان الدافع للجاحظ من وراء ذكر هذه النماذج وغيرها هو الردّ على الدهريين، وإنكارهم خبر بلقيس، والهدهد، وسليمان -عليه السلام-.

هذا هو الموضع الذي يوهم بأن الجاحظ قد قال بالصرفة التي نُسبت إلى أستاذه النظَّام.

وفي موطن آخر يقول الجاحظ: «ومثل ذلك ما رفع من أوهام العرب، وصرف نفوسهم عن المعارضة للقرآن، بعد أن تحداهم بنظمه، ولذلك لم نجد أحداً طمع فيه، ولو طمع فيه لتكلفه، ولو تكلف بعضهم ذلك، فجاء بأمر فيه أدنى شبهة، لعظمت القضية على الأعراب، وأشباه الأعراب، والنساء، وأشباه النساء، ولألقى ذلك للمسلمين عملاً، ولطلبوا المحاكمة والتراضي ببعض العرب، ولكثر القيل والقال»[77] . ويذكر الجاحظ هذا المفهوم للصرفة في موضع آخر من كتابه الحيوان، فيقول: «وذكرنا من صرف أوهام العرب عن محاولة معارضة القرآن، ولم يأتوا به مضطرباً، ولا ملفقاً، ولا مستكرهاً، إذ كان في ذلك لأهل الشغب متعلق»[78] . يقول د. سامي عطا حسن: «ومن الواضح أن الصرفة عند الجاحظ بمفهومها هذا، لا ينفي عن القرآن روعته البلاغية، ودرجته العالية في سلم الفصاحة، والبيان، وقد أكد الجاحظ هذه الحقيقة أكثر من مرة ، فذهب إلى أن وجه الإعجاز في القرآن، إنما هوالنظم والتأليف،

وأن القرآن الكريم بلغ القمة في روعة نظمه، والذروة العظمى من البلاغة التي لم يعهد مثلها في تراكيبهم، وتقاصرت عنها درجات بلاغتهم»[79].

وبهذا الأمر يتضح لنا أن مفهوم الصرفة الذي أطلقه الجاحظ في كلامه، يختلف عن مفهوم الصرفة الذي أراده النَّظَّام. فالجاحظ يؤمن تماماً أن القرآن معجز بذاته، من خلال وجه النظم وروعته التي تجدها في كل آية وسورة منه، وبالتالي فإن مسألة عجز النَّاس ظاهرةٌ بداهةً، سواء صرفوا أو لم يصرفوا. أما النَّظَّام فهو لا يؤمن بداهة بأن القرآن يمتلك أدوات الإعجاز الذاتي، فهو في ذاته كتاب غير معجز، ويتساوى مع غيره من الكتب التي لو خلي بين النَّاس وبينه لأتوا بمثله ولربما أفضل منه.

وفي الحقيقة، فقد اختلفت الأنظار في حقيقة رأى الجاحظ في إعجاز القرآن، فبعضهم يرى أن تلمذته للنظام أثرت في مذهبه في الإعجاز، وأنه تابع شيخه في القول بالصِّرفة، وإن لم يصرح بذلك. يقول د. زهران عبد الحميد المحقق لكتاب تهذيب الجاحظ: «اتسعت مدارك الجاحظ وتعددت بتعدد مصادر ثقافته، فقد تلقى العلم عن الجهابذة المبرزين، وتأثر بأساتذته وعلى الأخص أستاذه الذي تلقى عليه علم الكلام النظَّام، شيخ المعتزلة حتى أصبح الجاحظ من أعلامه المشهورين، وصار شيخاً لمدرسة من مدارس المتكلمين عرفت بالجاحظية»[80] .

وأعجبني تحليل للدكتور صلاح الدين محمّد عبد التواب، حين قال: «إن مفهوم الصرفة التي أطلقها الجاحظ تتلخص في الآتي: إن الله -سبحانه وتعالى- قد صرف النَّاس حتى لا يشغلوا عن القرآن، وهم يلتفتون إلى مثل تلك المعارضات غير المتكافئة، بعد أن أقروا بعجزهم، ولو قُدِّر لهذه المعارضات أن تقوم وتنتشر، لأصبحت الشغل الشاغل للناس، عن أن يحصروا اهتمامهم في الهدف الأسمى والجوهر الأصيل»[81]. والمدقق يجد تبريراً مسوغاً لمثل هذا الفهم المستخلص من فكر الجاحظ، فتخيل لو أن العرب وهم في الأغلب فصحاء وبلغاء، انشغلوا في إظهار تحديهم للقرآن، وأصبحت مناظرات تعقد في أسواق عكاظ وغيره، لمن يأتي بأفضل نص تحدى فيه صاحبه القرآن، لكانت النتيجة أن انشغل النَّاس عن المهمة الأساسية التي نزل من أجلها القرآن، ألا وهي هداية العباد إلى خالقهم.

ويقول د. العمري: «وجاء الجاحظ، وعملاً بمبدأ الالتزام الأدبي النقلي، تابع أستاذه النّظّام – وإن لم يذكر ذلك صراحة – في بادئ الأمر – ولكنه تحفّظ نوعاً ما.. ولعل تحفّظه أن يصرّح علانية بموافقته على رأي النظَّام – كان نتيجة لردود الفعل، التي أحدثها رأي النظَّام في المجتمع الإسلامي، حيث لم يرد أن يكون هو الآخر هدفاً لهذا التيار الجارف من جماعة السلف – الذي تعرض له أستاذه»[82].

ومما يذكر، أن مسيلمة الكذاب لم يدَّع معارضة القرآن، ولم يعلن تحديه أمام القرآن.. وإنما كان تحديه متوجهاً إلى الرسول -عليه الصلاة والسلام- من خلال ادعائه النبوة، وأنه يأتيه وحي هو الآخر من السماء، فهي منافسة على النبوة مع شخص محمّد -عليه الصلاة والسلام- فقط.

يقول د. صلاح الدين عبد التواب: «فمسيلمة لم يكن يحاول معارضة القرآن، وإنما كان يحاول أن يسطو على طريقة القرآن في التعبير، فلم يفلح وبان كذبه، ولم يثر حوله إلا هزء النَّاس واستخفافهم به، ولكنه استطاع على أية حال، أن يفتن البعض من ضعاف الإيمان، وهذا ما أراد الجاحظ أن يقوله: «لو قدِّر للعرب أن يقولوا شيئاً زاعمين، أنه مما يعارض به أسلوب القرآن، فهي صرفة – إذن- لا لأن الله أجبرهم، وحجر على عقولهم حتى لا يقولوا مثل القرآن، وهم قادرون، ولكنها صرفة حتى لا يشغل النَّاس بسفساف الأمور، وليعطوا كل عنايتهم واهتمامهم لهذا الكتاب الحكيم الجدير بكل تقدير

واعتبار»[83]. فالهدف من كل ذلك هو توجيه النَّاس نحو معالي الأمور، وليس لسفسائها، فالأمَّة المسلمة غنية بتراثها، ولا يليق بها أن تصرف وقتها وجهدها في الترف الفكري الذي لا يسمن ولا يغني من جوع، بل يؤخر تقدم الأمَّة عن تحقيق آمالها وأهدافها.

المبحث الرابع: نقد مفهوم الصرفة عند النظَّام والجاحظ

من الشخصيات التي لذعت الجاحظ بالنقد أحمد أمين، وأحمد جمال العمري.

يقول أحمد أمين: إنّ الجاحظ هو وليد النظَّام، ونتاج له، بل هو صورة من صوره البلاغية: صرح أحمد أمين بأن الجاحظ هو مجرد نسخة عن أستاذه الجاحظ، ولم ينسلخ عن تراث النظَّام الفكري والسياسي والأيدلوجي قيد أنمله، لكنه اختلف عنه في حدة الذكاء رغم سعة اطلاعه، يقول أمين: «إنّ الجاحظ لم يكن أمة وحده، وإن لم يكن بِدْعاً، ولم تتكون عقليته من عدم، إنما كان وليد النظَّام ونتاجاً له، وصورة من صوره في البلاغة وفي منهج البحث، وفي سعة الاطلاع، و في تحرير العقل، وفي الشك والتجربة قبل الإيمان واليقين، وربما لم يكن يساوي النظَّام في حدة الذهن ولا في الجرأة، ولكن ربما فاته في اطلاعه على كتب الثقافة اليونانية وغيرها أكثر مما اطلع النظَّام، بحكم تقدم الزمان، وازدياد حركة الترجمة والتأليف، هذا إلى أن النظَّام مات شاباً في مقتبل عمره، أما الجاحظ فقد عُمِّر طويلاً، ولم يمت إلا بعد أن نَيَّف على التسعين، واتصل بالأمراء والخلفاء العامة، ورُزِقَ الحظوةَ عندهم، ورزقت كتُبه الحظوة بما منح من أسلوب فضفاض جذّاب طويل متعرِّج غير مملّ. وكان في حياته لسان المعتزلة، المدافع عنها، المناصر لها، الموضح لمشاكلها، الذائد عن حياضها، ولكن مع الأسف أدى التعصُّب البغيض إلى أن يحتفظ الناس بكتبه الأدبيه، لا الدينية، ولم يسلم من يد المتزمتين ضيقي النظر»[84].

أما د. أحمد جمال العمري: فيرى أنَّ الجاحظ جَبُن وتحفَّظ قليلاً، عن المجاهرة بموافقته لآراء أستاذه النظَّام، وخصوصاً في مسألة الصرفة، وبرّر هذا السلوك وهذه التقية، بما لقيه أستاذه النظَّام، حيث كانت ردود الأفعال شديدة عليه، وخصوصاً من التيار السلفي الذي أوصل النظَّام إلى درجة الكفر والخروج من الملة: يقول د. العمري: «وجاء الجاحظ وعملاً بمبدأ الالتزام الأدبي النقلي، تابع أستاذه النّظّام – وإن لم يذكر ذلك صراحة – في بادئ الأمر – ولكنه تحفّظ نوعاً ما.. ولعل تحفّظه أن يصرّح علانية بموافقته على رأي النظَّام – كان نتيجة لردود الفعل، التي أحدثها رأي النظَّام في المجتمع الإسلامي، حيث لم يرد أن يكون هو الآخر هدفاً لهذا التيار الجارف من جماعة السلف – الذي تعرض له أستاذه»[85].

وعلى كل، فلو صح كلام القائلين بإضمار الجاحظ للقول بالصرفة وميله إليه، فإن ذلك لا يغض من كونه أول من نهض لإبراز الإعجاز القرآني في نظمه، وعلم كذلك أن له في الإسلام غناء عظيماً لم يكن الله –سبحانه وتعالى– ليضيعه عليه؛ لأن ما عرضه من بلاغة القرآن في آياته، في الإيجاز والحذف والزوائد والفصول والاستعارات، وجمع المعاني الكثيرة في الألفاظ القليلة إلى آخره أمر يصعب بخسه والإقلال من شأنه. لكن المحقق يجد أن النظام كان مداهناً نوعاً ما، إذ أدرك ما يمكن أن يلحق به لو قال بمثل ما قال به شيخه، من نقمة وسخط، وإهلاك وتدمير لتراثه الثقافي من قبل أهل السنة. فهو علم أن شيخه كُفِّر، ولربما حاول الناس قتله لجرأته التي لا مثيل لها، ولهذا لم يتبرأ من أفكار شيخه، ولم يتبناها بكاملها.

الشيخ محمد أبو زهرة: بينما يرى الشيخ محمد أبو زهرة –رحمه الله–، أن الجاحظ انتفض على فكر أستاذه النظَّام، وكان أول من تصدى له، وأنكر عليه

قوله وعابه بشكل صريح في منهاجه الفكري المعتمد على الظن. غير ذلك فيقول: «وإن أول ما كتب في إعجاز القرآن من ناحية البيان كان في الوقت الذى جاء فيه القول بالصرفة بين نفي وإثبات كما أشرنا، وأول مَن عُرف أنه تصدى للكلام في الإعجاز في نظم القرآن هو الجاحظ تلميذ النظَّام، الذى أنكر عليه قوله، وعابه في منهاجه الفكري من أنه يظن الظن، ثم يجعله أصلاً يجري عليه القياس مصححاً لقياسه بالمنطق، والعيب في أصل القول الذى بنى عليه، لا في الأقيسة التي أجرى بها مشابهاته»[86]. وهذا ما قالت به عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ): «فالجاحظ، وهو من تلاميذ النظَّام، صنّف كتابه نظم القرآن، احتجاجاً لإعجاز هذا النظم، ومخالفاً به رأي من اكتفوا فيه بالقول بالصرفة، دون نظر إلى بلاغته المعجزة التي تفوت بلاغات البشر»[87]. فهي ترى أن الجاحظ خالف أستاذه النظَّام في مسألة أن القرآن غيرُ معجز بنظمه، وبلاغته.

وعلى كل، فقد نهض أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت سنة255هـ) في القرن الثالث الهجري لهذا الأمر، فصنف كتاباً سماه: (نظم القرآن)[88]. وقديماً أشار الباقلاني رحمه الله –سبحانه وتعالى– إلى هذا الكتاب وإن لم يورده في موضع الثناء، إذ رأى أنّه لم يأت فيه بجديد يُعول عليه، قال: «وقد صنف الجاحظ في «نظم القرآن» كتاباً لم يزد فيه على ما قاله المتكلمون قبله، ولم يكشف عما يلتبس في أكثر هذا المعنى»[89]. وعلى العموم فإن أغلب كتب الجاحظ تتكلم عن القرآن، فأحياناً يحدثنا عن صحة أخباره، وأحياناً عن بديع نظمه، وتارة عن قوة حججه، وأحياناً يدافع عن القرآن، ويبطل الشبهات التي يقول بها الملاحدة والحاقدون [90]، وكان شديد الإعجاب بالعربية (لغة القرآن)، ودائماً يلاحق الشعوبيين الذين يكرهون ويحقدون على العرب والعربية؛ لأنهم يحسدون العرب؛ لأن الرسول –عليه الصلاة والسلام– منهم، وكانت له إشارات عن الإعجاز، فكان يتحدث عن حجج القرآن، وحجج النبوة، ومن أهم كتبه التي تتكلم عن بلاغة القرآن ونظمه وإعجازه: كتاب البيان والتبيين، وكتاب الحيوان. يقول د. محمد خريبة: «ويبدو أنَّ الزمخشري أفاد منه حيث ألف تفسيره – كما يفهم من مقدمة كتابه الكشاف–»[91] وأنا أؤيد هذا الزعم؛ لأن إشارات الجاحظ عن الإعجاز والاستعارات ممّا استشهد به الكشاف كثيراً في تفسيره.

ومن هنا نرى الجاحظ يعتقد أنَّ القرآن معجز بنظمه، وهو ما انفرد به القرآن في صياغة أساليبه، ثم يتكلم عن الصرفة، باعتبار أن الله –تعالى– صرف العرب عن معارضته ورفعها من أوهامهم[92] . ويقول موضحاً مقصوده من الصرفة: «وصرَف نفوسَهم عن المعارضة للقرآن، بعد أن تحداهم الرسول –عليه الصلاة والسلام– بنظمه، ولذلك لم نجد أحداً طمعَ فيه، ولو طَمِع فيه لتكلَّفه، ولو تكلَّف بعضهم ذلك، فجاء بأمر فيه أدنى شبهة لعظمت القضية على الأعراب وأشباه الأعراب، والنساء وأشباه النساء، ولألقى ذلك للمسلمين عملاً، ولطلبوا المحاكمة والتراضي ببعض العرب، وَلَكَثُر القيل والقال»[93]. ثم يأتي بنماذج تثبت صحة ما ادّعاه، فقال: «فقد رأيت أصحاب مسيلمة، وأصحاب ابن النوّاحة، إنما تعلّقوا بما ألَّف لهم مسيلمة من ذلك الكلام، الذي يعلم كل من سمعه، أنه إنما عدا على القرآن فسلبه، وأخذ بعضه، وتعاطى، ولو اجتمعوا له»[94].

ثم يضرب مثلاً آخر، وهو موت سليمان –عليه السلام، حيث كان ميتاً قائماً معتمداً على عصاه، وعصاه ثابتة قائمة في يده، وهو قابض عليها، فلا الشياطين عرفوا سجية وجوه الموتى، ولا هو إذا كان ميتاً، سقط سقوط الموتى، وما ظنوا، ولا ارتابوا رغم أنهم كانوا في العذاب والعمل الشاق، ولولا الصرفة التي يلقيها الله على قلب من أحب، ولولا أن الله يقدر

على أن يشغل الأوهام كيف يشاء، ويذكِّر بما يشاء، وينسِّي ما يشاء، لما اجتمع أهل داره وقصره»[95] .

وبهذا الأمر يتضح لنا أن مفهوم الصرفة الذي أطلقه الجاحظ في كلامه، يختلف عن مفهوم الصرفة الذي أراده النظَّام. فالجاحظ يؤمن تماماً أن القرآن معجز بذاته، من خلال وجه النظم وروعته التي تجدها في كل آية وسورة منه، وبالتالي فإن مسألة عجز الناس ظاهرة بداهة، سواء صرفوا أو لم يصرفوا. أما النظّام فهو لا يؤمن بداهة بأن القرآن يمتلك أدوات الإعجاز الذاتي، فهو في ذاته كتاب غير معجز، ويتساوى مع غيره من الكتب التي لو خلي بين الناس وبينه لأتوا بمثله ولربما أفضل منه.

فهناك فرق بين مفهومي النظَّام، والجاحظ للصرفة، فالنظَّام: يرى قدرة المنشئين على أن ينظموا مثل القرآن، والإعجاز في صرف الله لهم عن هذا الصنيع. أما الجاحظ: فلم يستعمل الصرفة بمفهومها النظَّامي الذي سبق أن أنكره عليه، وإنما استعملها بمفهوم آخر، لا يتنافى والقول بإعجاز القرآن بالنظم. فانصراف العرب عن معارضة القرآن، إنما وقع بعد أن تحداهم الرسول -عليه الصلاة والسلام- بنظمه، وهي لذلك ليست تعني أن الله أحدث فيهم منعاً، وعجزاً، وإنما تعني أن له تعالى تدبيراً، حفظ به القرآن من شغب المعاندين، فصرف أوهامهم ونفوسهم، عن كل محاولة لمعارضة القرآن، لما قد يدخل بذلك من الشبه على ضعاف العقول، ولما قد ينشأ عنه من الفتنة .

ومما يدل على أن الجاحظ لم يكن يحس بأي تعارض بين الصرفة بهذا المفهوم وبين نظرية النظم، أنه جمع بين النظريتين في مكان واحد، فبعد أن انتهى من تقرير مبدأ الصرفة، قال: «وفي كتابنا المنزل الذي يدل على أنه صدق، نظمه البديع الذي لا يقدر على مثله العباد، مع ما سوى ذلك من الدلائل التي جاء بها من جاء به» [96]. فكلام الجاحظ ينص على أن الذي أعجز العرب، هو نظم القرآن البديع، وأن النظم هو الذي تحداهم به الرسول -عليه الصلاة والسلام. أما حديثه عن صرف الله لهمم العرب عن محاولة محاكاته، فهو يبرز معنى فيه منة امتن الله بها على المسلمين، حين لم يتكلف بعض المتفلسفين معارضة القرآن، ولو فعل ذلك بعضهم، فليس في ذلك ما يخيفنا لأنه لن يأتي بكلام مثله، بل الأمر في غاية الاستحالة، ولكن الأمر الذي يدعو إلى القلق أن يأتي منافق عليم اللسان، وصاحب قدرة إقناعية، بكلام ينخدع به الضعفاء والفقراء، يخبرهم فيه أنه عارض القرآن بعباراته، ويتعلقون به لماله أو لجاهه، كما تعلق أصحاب مسيلمة بما اختلقه لهم من كلام سخيف، وحينئذ يفتح الباب للمتجرئين على القرآن.

انظر الجدول الآتي:

الفرق بين مفهومي النظَّام والجاحظ للصرفة

الفكرة	النظَّام	الجاحظ
الإعجاز القرآني	القرآن معجز من حيث الصرفة القرآن معجز بأخبار الغيب.	القرآن بليغ من حيث ألفاظه المختارة المنتقاة، ومن حيث نظمه ورصفه. القرآن معجز من حيث الصرفة.

الصرفة	يرى قدرة المنشئين على أن ينظموا مثل القرآن، والإعجاز في صرف الله لهم عن هذا الصنيع	استعملها بمفهوم آخر، لا يتنافى والقول بإعجاز القرآن بالنظم. كما ألف كتابًا في الاحتجاج للنظم القرآني، وشرح المذاهب والآراء المختلفة حول الإعجاز القرآني منذ نزل إلى عصره ، وسماه « نظم القرآن «
	كان يؤمن بأن الصرفة تعارض القول بنظم القرآن، ويفرق بينهما	لم يكن يحس بأي تعارض بين الصرفة بهذا المفهوم وبين نظرية النظم، وجمع بين النظريتين في مكان واحد، كما أن رؤيته للصرفة بهذا المعنى لا يقدح في إعجاز القرآن، وهو ضرب من التدبير الإلهي، فصرف نفوس العرب وأوهامهم عن معارضة القرآن ، ليحفظه من عبث العابثين.
	أن العرب صرفوا عن المعارضة جبرا، ولم يتوجهوا إليها، ولو توجهوا لاستطاعوا الإتيان بمثل القرآن، وهذا المذهب ينفي عن القرآن الإعجاز	أن الذي أعجز العرب، هو نظم القرآن البديع، فانصراف العرب عن معارضة القرآن، كان بسبب أن تحداهم الرسول –عليه الصلاة والسلام– بنظمه.
	إن الدليل على أن القرآن غير معجز في نفسه أنه لا يستطيع البشر الإتيان بمثله، ولا في قواهم معارضته بمثله، ولم يفعلوا ذلك مع شدة عداوتهم له، كل ذلك كان دليلاً على أنه من عند الله لصرفه إياهم عن معارضته مع قدرتهم على ذلك.	يرى في الصرفة منة امتن الله بها على المسلمين، حتى لا يعارض بعض المتكلفين القرآن ويأتي بكلام ينخدع به بعض الضعفاء، ويتعلقون به، كما تعلق أصحاب مسيلمة

الخاتمة

فبعد هذه الرحلة الجميلة مع النظَّام والجاحظ، يصل البحث إلى مجموعة من النتائج، يمكن إجمالها في النقاط المهمة الآتية:

1. توصل البحث إلى أن علماء الاعتزال كانوا أكثر الناس إثارة للكلام في إعجاز القرآن، ومن بينهم النظَّام، رأس المعتزلة وعمدة المتكلمين، وأستاذ الجاحظ، حيث ذهب إلى أن القرآن نفسه غير معجز، وإنما كان إعجازه بالصرفة، فكان بذلك أول من أذاع هذه الخبر عن القرآن القادم من الثقافة الهندية ورجالات البراهمة في كتابهم المسمى الفيدا.

2. كان الحديث عن الصرفة مجرد محاكاة لأولئك الهنود وغيرهم كما يحاكي اليوم بعض المستغربين من المسلمين علماء الغرب وغيرهم.

3. إن مفهوم الصرفة كما ذكره النظَّام لم يكتب له الرواج، نظراً لأنه يسلب النص القرآني إعجازه الذاتي، ويدعى أنه في طوق العرب، لو لم يصرفهم الله عن معارضته. ولهذا يرى بعضهم أن الصرفة هي انصراف العرب عن المعارضة، إذ نظروا في القرآن، ونظروا في إمكاناتهم وأنفسهم، فوجدوا أنهم لا يمكنهم معارضته، فانصرفوا عن ذلك، فهو انصراف لا صرفة.

4. إن المفهوم الذي أطلقه الجاحظ للصرفة، مغاير لمعناه عند النظَّام، فالنظَّام نفى النظم عن آيات القرآن بينما الجاحظ أثبتها، بل وألف كتاب البيان والتبيين وكتاب الحيوان، ويذكر أنه ألف كتاباً في نظم القرآن، تحدث فيه عن مفردات القرآن، وبعض أساليب البيان التي اصطلح عليها فيما بعد بعلم البلاغة، وللأسف فالكتاب حرمت منه المكتبة الإسلامية وكل ما وصلنا مجرد شذرات وردت في كتبه المتفرقة.

5. توصل البحث إلى أن سر مخالفة لشيخه النظَّام يرجع إلى كره النظَّام للتقليد الأعمى، وذلك لأن التقليد لا يأتي بخير. ومن جهة أخرى خالف شيخه من باب الاعتزاز بالنفس، وكراهية تبني أفكار الغير بالكامل. هذا بالإضافة إلى أن الفلسفة لعبت دورها في مخالفة الجاحظ لشيخه النظَّام، حيث قل أو ندر أن يجتمع فيلسوفان على فكرة واحدة مجتمعة دون أن يعطراها بالخلاف والاجتهاد والزيادة والنقصان.

6. أظهر البحث أن علماءنا المسلمين ردوا على هذه الفكرة بيسر، واقتلعوها من جذورها، وبلغوا من ذلك مبلغاً لا مزيد عليه، لأنهم رأوا أن من المحال أن يعظم العرب القرآن، وأن يبهتوا عند سماعه، وهم يرون فيما قاله الأولون ما يوازيه.. فالإيمان به ينافيه أن الله سبحانه وتعالى طالبهم بأن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات... وأعفاهم من أن يكون كلامهم مشتملاً على ما في القرآن من علم، واقتصر على التحدي بالنظم والعبارة واللفظ.

7. ومما توصل البحث إليه، أن الذين تبنوا القول بالصرفة من العلماء، فعلوا ذلك لاعتبارها وجهاً من وجوه الإعجاز من جهة أولى، ومن جهة ثانية كونها دالة على القوة الإلهية، وأنها أمراً خارجاً عن العادة كسائر المعجزات التي دلت على النبوة.

8. إن القول بالصرفة يلزم منه أن يكون العرب قد تراجعت عن حالها في البلاغة والبيان، وأن تكون أشعارهم وخطبهم قاصرة. كما يلزم منهم معرفة أنهم ممنوعون من الإتيان بمثله، ولو عرفوا ذلك لجاء عنهم التصريح به دون حياء، ولشكا بعضهم إلى بعض، وقالوا: إنا كنا نستطيع قبل هذا الذي جئتنا به، ولكنك سحرتنا، واحتلت علينا في شيء حال بيننا وبينه. ولما لم يحصل ذلك منهم، ولم يصدر منهم قول في هذا الموضوع، فدل ذلك على أن القول بالصرفة قول فاسد.

الهوامش

(1) وأيّد ذلك قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لاَّ يُؤْمِنُونَ فَلْيَأْتُواْ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُواْ صَادِقِينَ﴾ [الطور: 34-33].

(2) ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [هود: 13].

(3) وصدَّق ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: 23]. وكذلك قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: 38].

(4) لقوله تعالى: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: 88].

(5) انظر حديثنا عن معالم شخصية النظام، ص6.

(6) وسأتحدث عن هذا في مبحث النشأة التاريخية للصرفة إن شاء الله.

(7) فرقة إسلامية تسمي نفسها أصحاب العدل والتوحيد، ويلقبون بالقدرية والعدلية، وهم قد جعلوا لفظ القدرية مشتركاً، وقالوا لفظ القدرية يطلق على من يقول بالقدر خيره وشره من الله تعالى احترازاً من وصمة اللقب، إذ كان الذم به متفقاً عليه، وعلى العموم فهي فرقة نشأت في أواخر العصر الأموي، وازدهرت في العصر العباسي، وقد اعتمدت على العقل المجرد في فهم العقيدة الإسلامية، لتأثرها ببعض الفلسفات المستوردة، مما أدى إلى انحرافها عن عقيدة أهل السنة والجماعة وانقسامها إلى عشرين فرقةً، كل فرقة منها تكفر سائرها، وهذه أسماء فرقها: واصلية وعمرية والهذيلية والنظامية والاموارية والعمرية والثمامية والجاحظية والحايطية والحمارية والخياطية والسحامية واصحاب صالح قبة والمويسية والكعبية والجبائية والبهشيمية المنسوبة إلى أبي هاشم بن الجبائى وغير ذلك. انظر: الشهرستاني، محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد، الملل والنحل، ج1، ص43، دار المعرفة، بيروت، 1404هـ ، تحقيق: محمد سيد كيلاني، د.ط. تحقيق: محمد سيد كيلاني. بتصرف. وانظر: البغدادي أبو منصور، عبد القاهر بن طاهر بن محمد، الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية، ص18، ط2، دار الآفاق الجديدة، بيروت ، 1977م. بتصرف.

(8) النّظم: هو توخي معاني النحو فيما بين الكلم على حسب الأغراض التي يصاغ لها الكلام. انظر: التفتازاني، سعد الدين مسعود بن عمر بن عبد الله، شرح المقاصد في علم الكلام، ج2، ص185، دار المعارف النعمانية، باكستان، 1401هـ / 1981م.

(9) سلطان، منير، إعجاز القرآن بين المعتزلة والأشاعرة، ص85 ، ط3، منشأة المعارف، الاسكندرية ، 1986م.

(10) العمري، أحمد جمال، مفهوم الإعجاز القرآني حتى القرن السادس الهجري ص150 ، دار المعارف، القاهرة، د.ت.

(11) عبد الجبار الأسد آبادي، القاضي أبو الحسن، المغني في أبواب التوحيد والعدل، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ج16، ص318، ط1، مطبعة دار الكتب ، القاهرة ، 1380هـ / 1960م، قوَّم نصه على نسختين خطيتين: أمين الخولي.

(12) ابن فارس زكريا الرازي، أبو الحسين أحمد، معجم مقاييس اللغة، ج3 ،ص 342 ، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1420هـ / 1999م ، وضع حواشيه: إبراهيم شمس الدين، (مادة صرف).

(13) الزمخشري، جار الله أبو القاسم محمود بن عمر، أساس البلاغة، ص353، ط1، دار بيروت، بيروت، 1412هـ1992-م. (مادة صرف).

(14) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ج3 ، ص 342، (مادة صرف).

(15) انظر: البيهقي، أحمد بن الحسين، الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد على مذهب السلف وأصحاب الحديث، ص266، ط1، دار الآفاق الجديدة، بيروت ،1401هـ، تحقيق أحمد عصام الكاتب.

(16) وهذا اليهودي، هو الذي سحر رسول الله – صلى الله عليه وسلم– وقد ورد ذلك في الحديث الذي روته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: سحر رسول الله –صلى الله عليه وسلم– حتى إنّه ليخيل إليه أنه فعل الشيء، وما فعله. حتى إذا كان ذات يوم، وهو عندي دعا الله، ودعا، ثم قال «أشعرتِ يا عائشةُ أن الله قد أفتاني فيما استفتيت؟ قلت: وما ذلك يا رسول الله؟ قال: جاءني رجلان، فجلس أحدثما عند رأسي، والآخر عند رجلي، ثم قال أحدهما لصاحبه: ما وجعُ الرّجلِ؟ قال: مطبوب. قال: ومَن طبّه؟ قال: لبيد بن الأعصم اليهودي من بني زريق. قال: فبماذا؟ قال: في مشط ومشاطه، وجف طلعة ذكر. قال: فأين هو ؟ قال: في بئر ذروان. فذهب النبي –عليه الصلاة والسلام– في أناس من أصحابه إلى البئر، فنظر إليها، وعليها نخلٌ، ثم رجع إلى عائشة فقال: والله، لكأنَّ ماءَها نقاعة الحناء، ولكان نخلها رؤوس الشياطين، قلت: يا رسول الله أفأخرجتَه؟ قال: لا، أما فقد عافاني الله وشفاني، وخشيت أن أثور على الناس منه شراً، فأمر بها فدفنت». متفق عليه، وفي رواية لمسلم: قالت: فقلت: يا رسول الله أفلا أخرجته؟ قال: لا». أخرجه البخاري، الإمام محمد بن إسماعيل بن إبراهيم، الجامع الصحيح المسند المختصر من حديث رسول الله –عليه الصلاة والسلام– وسننه وأيامه، كتاب الطب، باب السحر، رقم الحديث: 5430، ج5، ص2174، ط3، دار ابن كثير، بيروت، 1987م ، تحقيق د. مصطفى البغا. وكذلك أخرجه مسلم، الإمام أبو الحسين بن الحجاج القشيري النيسابوري، المسند الصحيح، في كتاب السلام، باب السحر، رقم الحديث: 2189، ج4، ص1719، د.ط، دار إحياء التراث العربي، بيروت ، د.ت، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي.

(17) الندوة العالمية للشباب الإسلامي، الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، ج11، ص17، د.ط، دار الندوة العالمية ، د.م ، د.ت، إشراف وتخطيط ومراجعة د. مانع بن حماد الجهني.

(18) سورة الزمر: 62.

(19) سورة الأحقاف: 25.

(20) انظر: أبو حيان الأندلسي، محمد بن يوسف، تفسير البحر المحيط، ج8، ص139، ط1، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1422هـ / 2001م، تحقيق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، شارك في التحقيق زكريا عبد المجيد النوقي وأحمد النجولي الجمل.

(21) أصحاب بنان بن سمعان التميمي، وهم طائفة من الشيعة، قالوا إن الله تعالى على صورة الإنسان وروح الله حلت في علي ثم في ابنه محمد ابن الحنفية ثم في ابنه هاشم ثم في بنان. انظر: ابن حزم الظاهري، علي بن أحمد بن سعيد أبو محمد، الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج2، ص90 ، د.ط، مكتبة الخانجي، القاهرة، د.ت.

(22) قال ابن حجر: «الجعد بن درهم عداده في التابعين، مبتدع ضال زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً، ولم يكلم موسى، فقتل على ذلك بالعراق يوم النحر، وللجعد أخبار كثيرة في الزندقة» انظر: ابن حجر أبو الفضل العسقلاني، أحمد بن علي الشافعي، لسان الميزان، ج2، ص105، ط3، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت ، 1406هـ / 1986م ، تحقيق دائرة المعرفة النظامية – الهند.

(23) البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى أبو بكر، سنن البيهقي الكبرى، ج10، ص205، د.ط، مكتبة دار الباز، مكة المكرمة، 1414هـ / 1994م، تحقيق محمد عبد القادر عطا. وانظر: ابن حجر أبو الفضل العسقلاني، أحمد بن علي الشافعي، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج13، ص345، د.ط، دار المعرفة، 1379هـ، بيروت. وانظر: ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل، البداية والنهاية، ج9، ص379-378 ، ط1، دار التقوى ، القاهرة، 1420هـ / 2004م.

(24) انظر: مسلم، مصطفى، مباحث في إعجاز القرآن، ص58، ط3، دار القلم، دمشق ، 1426هـ / 2005م.

(25) قيل كذلك: إن أول من جاهر بالصرفة من أهل السنة: أبو إسحق الإسفراييني. وهو أبو إسحق إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن مِهران الإسفراييني، الأصولي الشافعي الملقب ركن الدين. انظر: الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، سير أعلام النبلاء، ج17، ص353، ط11، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1422هـ / 2001م، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: شعيب الأرنؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي.

ومن أهل الشيعة: السيد المرتضى أبو القاسم علي بن السيد أبى احمد الحسين بن موسى بن محمد بن موسى بن إبراهيم بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبى طالب عليهم السلام، ولد في شهر رجب سنة 355هـ، وتوفي سنة 436هـ. انظر: السفاريني الحنبلي، شمس الدين أبو العون محمد بن أحمد بن سالم، لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية، ج1، ص174 ، ط2، مؤسسة الخافقين ومكتبتها، دمشق ، 1402هـ / 1982م. وانظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج17، ص425. وانظر: ابن حجر العسقلاني، لسان الميزان، ج4، ص223.

(26) الزرقاني، محمد عبد العظيم، مناهل العرفان في علوم القرآن، ج2، ص381 ، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت ، 1422هـ / 2001م.

(27) أبو زهرة، محمد، المعجزة الكبرى القرآن، ص79، د.ط، دار الفكر العربي ، د.م ، د.ت.

(28) النظَّام: إبراهيم بن سيَّار بن هانئ البصري، أبو إسحاق النظَّام: من أئمة المعتزلة، وعمدة المتكلمين، قال الجاحظ: «الأوائل يقولون: في كل ألف سنة رجل لا نظير له، فان صح ذلك فأبو إسحاق من أولئك». انظر: أمين، أحمد، موسوعة الحضارة الإسلامية – ضحى الإسلام، ج4، ص727 ، دار نوبلْيس، بيروت، 2006م. وانظر: الفيومي، محمد إبراهيم، المعتزلة – تكوين العقل العربي، أعلام وأفكار، ص217 ، ط1، دار الفكر العربي، القاهرة ، 1423هـ / 2002م. تبحر في علوم الفلسفة واطلع على أكثر ما كتبه رجالها من طبيعيين وإلهيين، وانفرد بآراء خاصة، منها القول بالصَّرفة، وتابعته فيها فرقة من المعتزلة سميت (النظامية) نسبة إليه. وقد أُلفت كتبٌ خاصة للرد على النظام، وفيها تكفير له وتضليل. أمّا شهرتُه بالنظام فأشياعه يقولون: إنها من إجادته نظم الكلام، وخصومه يقولون إنه كان ينظم الخرز في سوق البصرة. وعاش في زمن المعتصم، قال صاحب الملل والنحل: «كان أغلى في تقرير مذاهب الفلاسفة، وانفرد عن السلف ببدع في القدر والرفض وعن أصحابه بمسائل نذكرها». انظر: الشهرستاني، الملل والنحل، ج1، ص31.

(29) أبو زهرة، المعجزة الكبرى، ص81-80. وانظر: حسن، سامي عطا، الصرفة دلالتها لدى القائلين بها وردود المعارضين لها، http://www.dahsha.com/viewarticle.php?id=33466. التاريخ: 13/7/2009.

(30) محمد بن الهذيل البصري العلاف، صاحب التصانيف، كان مولى لعبد القيس، وقد جرى على منهاج أبناء السبايا لظهور أكثر البدع منهم، وفضائحه تترى تكفره فيها سائر فرق الأمة من أصحابه في الاعتزال ومن غيرهم، وللمعروف بالمرداد من المعتزلة كتاب كبير، فيه فضائح أبي الهذيل وفي تكفيره بما انفرد به من ضلالاته، وللجبائي أيضاً كتاب في الرد على أبى الهذيل، في المخلوق، ويكفره فيه، ولجعفر بن حرب أيضاً وهو المشهور في زعماء المعتزلة كتاب سماه: توبيخ أبى الهذيل، وأشار الى تكفير أبي الهذيل، وذكر فيه أن قوله يجر إلى قول الدهرية، فمن فضائح أبى الهذيل قوله: بفناء مقدورات الله –عز وجل–، حتى لا يكون بعد فناء مقدوراته قادرٌ على شيء، ولأجل هذا زعم أن نعيم أهل الجنة وأهل النار يفنيان، ويبقى حينئذ أهل الجنة وأهل النار خامدين لا يقدرون على شيء، ولا يقدر الله –عز وجل– في تلك الحال على إحياء ميت، ولا على إماتة حي، ولا على تحريك ساكن. انظر: البغدادي، الفرق بين الفرق، ص102.

(31) سأل رجل أبا الهذيل العلاف المعتزلي البصري عن القرآن، فقال: مخلوق، فقال له: مخلوق يموت أو يخلد، قال: لا بل يموت، قال: فمتى يموت القرآن، قال: إذا مات من يتلوه فهو موته، قال: فقد مات من يتلوه، وقد ذهبت الدنيا وتصرمت وقال الله عز وجل: "لمن الملك اليوم" فهذا القرآن، وقد مات الناس. فقال: ما أدري. انظر: اللالكائي أبو القاسم، هبة الله بن الحسن بن منصور، شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة، ج2، ص221، دار طيبة، الرياض ، 1402هـ، تحقيق د. أحمد سعد حمدان. وانظر: العمراني، يحيى بن أبي الخير، الانتصار في الرد على المعتزلة القدرية الأشرار، ج2، ص 548، أضواء السلف، الرياض، 1999م، تحقيق سعود بن عبد العزيز الخلف.

(32) الثنوية: هؤلاء هم اصحاب الاثنين الأزليين، يزعمون أن النور والظلمة أزليان قديمان، بخلاف المجوس، فإنهم قالوا: بحدوث الظلام، وذكروا سبب حدوثه. انظر: الشهرستاني، الملل والنحل، ج1، ص244.

(33) السمنية: فرقة قالوا بقدم العالم، وأبطلوا النظر والاستدلال، وزعموا أنه لا معلوم إلا من جهة الحواس الخمس، وأنكر أكثرهم المعاد والبعث بعد الموت، وقال فريق منهم بتناسخ الأرواح في الصور المختلفة، وأجازوا أن ينقل روح الإنسان إلى كلب وروح الكلب إلى إنسان. انظر: البغدادي، الفرق بين الفرق، ص253.

(34) قوم يبطلون المعجزات، ويرون أن التكليف يتوجه على العاقل بخاطرين بقلبه احدهما من قبل الله سبحانه يدعوه به الى النظر والاستدلال، والآخر من قبل الشيطان يدعوه به الى العصيان، وينهاه به عن طاعة الخاطر الاول، وهذا يوجب عليهم ان يكون ذلك الشيطان مكلفا بخاطرين، احدهما من قبل الله تعالى والآخر من قبل شيطان آخر ثم يكون القول في الشيطان الآخر كالقول في الاول حتى يتسلل ذلك بشياطين لا الى نهاية انظر: البغدادي، الفرق بين الفرق، ص114، و ص338.

(35) البغدادي، الفرق بين الفرق، ص 128. (بتصرف بسيط). وانظر: حسن ، سامي عطا، الصرفة دلالتها لدى القائلين بها وردود المعارضين لها، http://www.dahsha.com/viewarticle.php?id=33466. التاريخ: 13/7/2009.

(36) الشهرستاني، الملل والنحل، ج1، ص52.

(37) الأشعري، أبو الحسن، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، ج1، ص296 ، ط3، دار إحياء التراث العربي، بيروت ، د.ت ، تحقيق هلموت ريتر.

(38) انظر: الزركلي الدمشقي، خير الدين بن

محمود بن محمد بن علي بن فارس، الأعلام، ج1، ص43 ، ط15، دار العلم للملايين، د.م ، 2002م.

(39) الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، نزهة الفضلاء – تهذيب سير أعلام النبلاء، ج2، ص966، ط5، دار الأندلس الخضراء، جدة، 1421هـ / 2000م، إعداد د. محمد بن حسن بن عقيل موسى الشريف.

(40) الشهرستاني، الملل والنحل، ج1، ص75.

(41) انظر: الذهبي، نزهة الفضلاء – تهذيب سير أعلام النبلاء، ج2، ص966. ومن اختلاقاته ما ذكره البغدادي، في الفضيحة الثالثة عشرة من فضائح الجاحظ: أن ما حكاه الجاحظ عن النظام من قوله تتجدد الجواهر والاجسام حالاً بعد حال، وأن الله تعالى يخلق الدنيا وما فيها في كل حال، من غير أن يفنيها ويعيدها، وذكر أبو الحسين الخياط في كتابه على ابن الروندى: أن الجاحظ غلط في حكاية هذا القول على النظام. فيقال له: إن صَدَق الجاحظ عليه في هذه الحكاية، فاحكم بجهل النظام وحمقه وإلحاده فيه، وإن كذب عليه فاحكم بمجون الجاحظ وسفهه، وهو شيخ المعتزلة وفيلسوفها، ونحن لا ننكر كذب المعتزلة على أسلافها، إذا كانوا كاذبين على ربهم ونبيهم. انظر: البغدادي، الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية، ج1، ص126.

(42) امتدح ابن خلدون في مقدمته، كتاب البيان والتبين وعده من أصول كتب الأدب، فقال عند الكلام على علم الأدب: «وسمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم أن أصول هذا الفن وأركانه أربعة كتب هي: أدب الكاتب لابن قتيبة، كتاب الكامل للمبرد، كتاب البيان والتبيين للجاحظ، وكتاب النوادر لأبي علي القالي، وما سوى هذه الأربعة فتبع لها وفروع منها». انظر: ابن خلدون، عبد الرحمن، مقدمة ابن خلدون، ص476 ، ط8، دار الكتب العلمية، بيروت ، 2003م / 1424هـ.

(43) للجاحظ تصانيف كثيرة، منها «الحيوان» و «البيان والتبيين» و «سحر البيان» و «التاج» ويسمى أخلاق الملوك، و «البخلاء» و «المحاسن والأضداد» و «التبصر بالتجارة». انظر: ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج3، ص471، دار صادر، بيروت، د.ت، تحقيق إحسان عباس.

(44) ومن الشبهات التي قام الجاحظ بدحضها، شبهة حول جمع أمير المؤمنين عثمان –رضي الله عنه– للقرآن. قال الجاحظ: «والذي يُخطّئ عثمان في ذلك فقد خطّأ علياً وعبد الرحمن وسعداً، والزبير وطلحة وعُليةَ الصّحابةِ. ولو لم يكن ذلك رأي علي لغيّره، ولو لم يمكنه التغيير لقال فيه، ولو لم يمكنه في زمن عثمان لأمكنه في زمن نفسه، وكان لا أقل من إظهار الحجة إن لم يملك تحويل الأمة، وكان لا أقل من التجربة إن لم يكن من النّجاح على ثقة، بل لم يكن لعثمان في ذلك ما لم يكن لجميع الصحابة، وأهل القدم والقدوة، ومع أن الوجه فيما صنعوا واضح، بل لا نجد لما صنعوا وجهاً غير الإصابة والاحتياط، والإشفاق والنظر للعواقب، وحسم طعن الطاعن. ولو لم يكن ما صنعوا لله تعالى فيه رضاً لما اجتمع عليه أول الأمة وآخرها، وإن أمراً اجتمعت عليه المعتزلة والشيعة، والخوارج والمرجئة، لظاهر الصواب، واضح البرهان، على اختلاف أهوائهم» انظر: القفاري، ناصر بن عبد الله بن علي، أصول مذهب الشيعة الإمامية الإثني عشرية عرض ونقد، ج3، ص991.

(45) الشعوبية مصطلح يراد به كره العرب، وهو ضد العروبة، والشعوبيون هم الأعاجم الذين يحاولون طمس ضوء العرب وإخفاء مناقبهم، وإظهار معايبهم. انظر: البغدادي، الفرق بين الفرق، ص285. وانظر: ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي، تهذيب التهذيب، ص15 ، ط1،

دار الفكر، بيروت ، 1404هـ/ 1984م. وانظر: القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين، الجامع لأحكام القرآن، ج11، ص189، د.ط، دار عالم الكتب، الرياض، 1423هـ/ 2003م، تحقيق هشام سمير البخاري. وانظر: ابن عطية الأندلسي، أبو محمد عبد الحق بن غالب، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ج5، ص136 ، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1413هـ/ 1993م ، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد. وكل هذا لأن العرب هم الأمة التي حملت الاسلام، وسيطرت على العالم في العصور الأولى من تاريخه، ولا تهدف من وراء ذلك إلا نشر الفضائل والعلم والعدل والمساواة والحرية والإحسان والتكافل، في حين كان غير العرب وهم العجم، يغرقون في ظلام دامس، حيث لا فكر، ولا علم ولا حضارة، بل جهل وسقوط حضاري شنيع متخبط، فحمل حسداً مشعل الشعوبية أناس من مجموعات مختلفة ومن شعوب متنوعة من الأعاجم، ربما لم يعجبهم ذلك أو تضررت مصالحهم من سيطرة الإسلام ذات القيم والمبادئ الحضارية، فحاربوه، من خلال الطعن بحامليه، أهل العزة والكرامة والأصالة والمبادئ الإنسانية وأساتذة البشر بعد أن كانوا رعاة الإبل والغنم والبقر.

(46) من قرأ كتاب الحيوان للجاحظ عرف كيف رد على مطاعن الملحدين، وما أثاروه من شبهات حول تأويل بعض آيات الذكر الحكيم، أغلبها يرجع إلى جهلهم العام بوجوه التعبير الأدبي في اللغة العربية، ودلالات الصور البلاغية.

(47) الشحود، علي بن نايف، موسوعة الرد على المذاهب الفكرية المعاصرة، ج49، ص18 ، د.ط، د.ن، د.م، د.ت.

(48) الجاحظ، أبوعثمان عمرو بن بحر، البيان والتبيين، ج1، ص 405 و 574 ،ط1، دار صعب، بيروت ، 1968م.

(49) ابن حزم الظاهري، الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج4، ص139. وانظر: القفاري، أصول مذهب الشيعة الإمامية الإثني عشرية عرض ونقد، ج1، ص212.

(50) ابن المفضل الحسني القاسمي، محمد بن إبراهيم بن علي بن المرتضى، إيثار الحق على الخلق في رد الخلافات الى المذهب الحق من أصول التوحيد، ج1، ص396 ، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت ، 1987م.

(51) الشهرستاني، الملل والنحل، ج1، ص74.

(52) الشحود، علي بن نايف، المفصل في شرح آية لا إكراه في الدين، ج3، ص111، د.ط، د.ن، د.م ، د.ت.

(53) انظر: البغدادي، الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية، ج1، 163.

(54) البغدادي، الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية، ج1، ص163.

(55) الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، الحيوان، ج1، ص131، د.ط، دار الجيل ، بيروت ، 1416هـ / 1996م ، تحقيق عبد السلام محمد هارون.

(56) الجاحظ، الحيوان، ج1، ص9.

(57) خريبة، محمد بن عبد المنعم، بحث في الإعجاز القرآني، ص17 ، ط1، مطبعة الجبلاوي، القاهرة ، 1406هـ/ 1986م.

(58) الزمخشري، جار الله أبو القاسم محمود بن عمر، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج1، ص1 ، دار الكتاب العربي، بيروت ، 1407 هـ.

(59) الزمخشري، الكشاف، ج1، ص79-78.

(60) الباقلاني، أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم، إعجاز القرآن، ص21 ، ط1، عالم الكتب، بيروت ، 1408هـ/ 1988م.

(61) بنت الشاطئ، عائشة عبد الرحمن، الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق دراسة قرآنية لغوية بيانية، ص19 ، ط2، دار المعارف، القاهرة د.ت.

(62) الجاحظ، الحيوان، ج4، ص320.

(63)الجاحظ، الحيوان، ج5، ص187.

(64) الجاحظ، الحيوان، ج2، ص230-229.

(65) الجاحظ، الحيوان، ج2، ص230.

(66) أبو الحسن الأشعري، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، ج1، ص225.

(67) هو أحمد بن أبي دؤاد الملقب بأبي عبد الله القاضي، من الطبقة الثانية من طبقات المعتزلة، توفي سنة 240 هـ. وكان فصيحاً مفوهاً شاعراً جواداً ممدحاً، رأساً في التجهم، وهو لذي شغب على الإمام أحمد بن حنبل، وأفتى بقتله، قاله في العبر، وقال ابن الأهدل: كان عالماً جواداً ممدحاً معتزلياً، وكان له القبول التام عند المأمون والمعتصم، وهو أول من بدأ الخلفاء بالكلام، وكانوا لا يكلمون حتى يتكلموا. انظر: العكري الحنبلي، عبد الحي بن أحمد بن محمد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج2، ص93، ط1، دار ابن كثير، دمشق، 1406هـ ، تحقيق عبد القادر الأرنؤوط، محمود الأرناؤوط. وانظر: السبكي، تاج الدين بن علي بن عبد الكافي، طبقات الشافعية، ج2، ص38 ، ط2، هجر للطباعة والنشر والتوزيع، ، د.م ، 1413هـ ، تحقيق د. محمود محمد الطناحي، د.عبد الفتاح محمد الحلو.

(68) الجاحظ، الرسائل، ج3، ص287.

(69) الجاحظ، الحيوان، ج4، ص90.

(70) عباس، فضل حسن، وسناء فضل، إعجاز القرآن الكريم، ص40 ، ط3 ، دار الفرقان ، عمان، 1420هـ / 1999م.

(71) انظر: الجاحظ، ج4 ص89. بتصرف. ولمزيد من البيان: ينظر: حسن ، سامي عطا، الصرفة دلالتها لدى القائلين بها وردود المعارضين لها، http://www.dahsha.com/viewarticle.php?id=33466. التاريخ: 13/7/2009.

(72) لاشين، عبد الفتاح، بلاغة القرآن في آثار القاضي عبد الجبار وأثره في الدراسات البلاغية، ص435، د.ط، دار الفكر العربي، مطبعة دار القرآن، القاهرة ، د.ت.

(73) الجاحظ، الحيوان، ج4، ص89.

(74) الجاحظ، الحيوان، ج4، ص91.

(75) الجاحظ، الحيوان، ج4، ص87-86.

(76) الجاحظ، الحيوان، ج4، ص87.

(77) الجاحظ، الحيوان، ج4، ص89.

(78) الجاحظ، الحيوان، ج6، ص269.

(79) حسن، سامي عطا، الصرفة دلالتها لدى القائلين بها وردود المعارضين لها، المفهوم الثاني للصرفة. http://www.dahsha.com/viewarticle.php?id=33466. التاريخ: 13/7/2009.

(80) ابن منظور ، تهذيب حيوان الجاحظ، ص32، ط1، دار الجيل، بيروت ، 1413هـ / 1992م، تحقيق د. زهران محمد جبران عبد الحميد.

(81) عبد التواب، صلاح الدين محمد، النقد الأدبي – دراسات نقدية وأدبية حول إعجاز القرآن، ص32، دار الكتاب الحديث، القاهرة، 1423هـ / 2003م.

(82) العمري، أحمد جمال، مفهوم الإعجاز القرآني حتى القرن السادس الهجري، ص49.

(83) عبد التواب، النقد الأدبي – دراسات نقدية وأدبية حول إعجاز القرآن، ص33-32.

(84) أمين، أحمد، الموسوعة الإسلامية – ضحى الإسلام، ج4، ص732.

(85) العمري، أحمد جمال، مفهوم الإعجاز القرآني حتى القرن السادس الهجري، ص49.

(86) أبو زهرة، محمد، المعجزة الكبرى – القرآن،

ص86.

(87) انظر: بنت الشاطئ، الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق دراسة قرآنية لغوية بيانية، ص83.

(88) هو كتاب غير موجود، وإنما تشير إليه المراجع الأخرى من كتب الجاحظ نفسه، أو من كتب غيره. والجاحظ عَلَم من أعلام المعتزلة، وأديب ناقد ومتكلم، تقول الدكتورة عائشة عبد الرحمن: «في القرن الثالث ظهرت كتب في الإعجاز تحمل في الغالب عنوان- نظم القرآن- وللجاحظ كتاب بهذا الاسم لم يصل إلينا وإن كان الجاحظ أشار إليه في كتابه «حجج النبوة، كما أشار إليه الباقلاني في كتابه إعجاز القرآن. انظر: بنت الشاطئ، الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق دراسة قرآنية لغوية بيانية، ص19.

(89) الباقلاني، إعجاز القرآن، ص21.

(90) من قرأ كتاب الحيوان للجاحظ عرف كيف رد الجاحظ على مطاعن الملحدين، وما أثاروه من شبهات حول تأويل بعض آيات الذكر الحكيم، وما كان ذلك إلا بسبب جهلهم الطام والعام بوجوه التعبير الأدبي في اللغة العربية، ودلالات الصور البلاغية.

(91) خريبة، بحث في الإعجاز القرآني، ص17.

(92) لاشين، عبد الفتاح، بلاغة القرآن في آثار القاضي عبد الجبار واثره في الدراسات البلاغية، ص435.

(93) الجاحظ، الحيوان، ج4، ص92-91.

(94) الجاحظ، الحيوان، ج4، ص89.

(95) الجاحظ، الحيوان، ج4، ص92-91.

(96) الجاحظ، الحيوان، ج4، ص90.

قائمة بأسماء المصادر والمراجع

ابن المفضل الحسني القاسمي، محمد بن إبراهيم بن علي بن المرتضى، إيثار الحق على الخلق في رد الخلافات الى المذهب الحق من أصول التوحيد، دار الكتب العلمية، بيروت ط2 1987م.

ابن حجر أبو الفضل العسقلاني، أحمد بن علي الشافعي، فتح الباري شرح صحيح البخاري، دار المعرفة، بيروت د.ط 1379هـ.

ابن حجر أبو الفضل العسقلاني، أحمد بن علي الشافعي، لسان الميزان، تحقيق دائرة المعرفة النظامية – الهند، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت ط3 1406هـ / 1986م.

ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي، تهذيب التهذيب، دار الفكر ، بيروت ط1 1404هـ / 1984م.

ابن حزم الظاهري، علي بن أحمد بن سعيد أبو محمد، الفصل في الملل والأهواء والنحل، مكتبة الخانجي ، القاهرة د.ط د.ت.

ابن خلدون، عبد الرحمن، مقدمة ابن خلدون، دار الكتب العلمية ، بيروت ط8 2003م / 1424هـ.

ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت د.ط د.ت.

ابن عطية الأندلسي، أبو محمد عبد الحق بن غالب، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد دار الكتب العلمية ، بيروت ط1 1413هـ / 1993م.

ابن فارس زكريا الرازي، أبو الحسين أحمد، معجم مقاييس اللغة، وضع حواشيه إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية ، بيروت ط1 1420هـ / 1999م.

ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل، البداية والنهاية، دار التقوى ، القاهرة ط1 1420هـ / 2004م.

ابن منظور، تهذيب حيوان الجاحظ، تحقيق د. زهران محمد جبران عبد الحميد، دار الجيل ، بيروت ط1 1413هـ / 1992م.

أبو حيان الأندلسي، محمد بن يوسف، تفسير البحر المحيط، تحقيق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود – الشيخ علي محمد معوض، شارك في التحقيق: زكريا عبد المجيد النوقي، وأحمد النجولي الجمل، دار الكتب

العلمية، بيروت ط1 1422هـ / 2001م.
أبو زهرة، محمد، المعجزة الكبرى القرآن، دار الفكر العربي، د.م د.ط د.ت.
الأشعري، أبو الحسن، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، تحقيق هلموت ريتر، دار إحياء التراث العربي، بيروت ط3 د.ت.
أمين، أحمد، موسوعة الحضارة الإسلامية – ضحى الإسلام، دار نوبلْيس ، بيروت د.ط 2006م.
الباقلاني، أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم، إعجاز القرآن، عالم الكتب ، بيروت ط1 1408هـ / 1988م.
البخاري، الإمام محمد بن إسماعيل بن إبراهيم، الجامع الصحيح المسند المختصر من حديث رسول الله –صلى الله عليه وسلم– وسننه وأيامه، كتاب الطب، باب السحر، تحقيق د. مصطفى البغا، دار ابن كثير ، بيروت ط3 1987م.
البغدادي أبو منصور، عبد القاهر بن طاهر بن محمد، الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ط2 1977.
بنت الشاطئ، عائشة عبد الرحمن، الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق دراسة قرآنية لغوية بيانية، دار المعارف ، القاهرة ط2 د.ت.
البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى أبو بكر، سنن البيهقي الكبرى، تحقيق محمد عبد القادر عطا ، مكتبة دار الباز، مكة المكرمة د.ط 1414هـ / 1994م.
البيهقي، أحمد بن الحسين، الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد على مذهب السلف وأصحاب الحديث، تحقيق أحمد عصام الكاتب، دار الآفاق الجديدة، بيروت ط1 1401هـ.
التفتازاني، سعد الدين مسعود بن عمر بن عبد الله، شرح المقاصد في علم الكلام، دار المعارف النعمانية ، باكستان د.ط 1401هـ / 1981م.
الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، الكتاب الأول الحيوان، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، القاهرة ط2 1385هـ / 1966م.
الجاحظ، أبوعثمان عمرو بن بحر، البيان والتبيين، دار صعب ، بيروت ط1 1968م.
حسن، سامي عطا، الصرفة دلالتها لدى القائلين بها وردود المعارضين لها، http://www.dahsha.com/viewarticle.php?id=33466. التاريخ: 13/7/2009.
خريبة، محمد بن عبد المنعم، بحث في الإعجاز القرآني، مطبعة الجبلاوي، القاهرة ط1 1406هـ / 1986م.
الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، سير أعلام النبلاء، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه شعيب الأرنؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة ، بيروت ط11 1422هـ / 2001م.
الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، نزهة الفضلاء – تهذيب سير أعلام النبلاء، إعداد د. محمد بن حسن بن عقيل موسى الشريف، دار الأندلس الخضراء ، جدة ط5 1421هـ / 2000م.
الزرقاني، محمد عبد العظيم، مناهل العرفان في علوم القرآن، المكتبة العصرية ، صيدا – بيروت د.ط 1422هـ / 2001م.
الزركلي الدمشقي، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي، الأعلام، دار العلم للملايين ، د.م ط15 2002م.
الزمخشري، جار الله أبو القاسم محمود بن عمر، أساس البلاغة، دار بيروت ، بيروت ط1 1412هـ– 1992م.
الزمخشري، جار الله أبو القاسم محمود بن عمر، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار الكتاب العربي ، بيروت د.ط 1407 هـ.

السبكي، تاج الدين بن علي بن عبد الكافي، طبقات الشافعية، تحقيق د. محمود محمد الطناحي، د.عبد الفتاح محمد الحلو، هجر للطباعة والنشر والتوزيع ، د.م ط2 1413هـ.

السفاريني الحنبلي، شمس الدين أبو العون محمد بن أحمد بن سالم، لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية، مؤسسة الخافقين ومكتبتها ، دمشق ط2 1402 هـ / 1982م.

سلطان، منير، إعجاز القرآن بين المعتزلة والأشاعرة، منشأة المعارف ، الاسكندرية ط3 1986م.

الشحود، علي بن نايف، موسوعة الرد على المذاهب الفكرية المعاصرة، د.ن (د.م د.ط د.ت).

الشهرستاني، محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد، الملل والنحل، تحقيق محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت د.ط 1404هـ.

عباس، فضل حسن، وسناء فضل، إعجاز القرآن الكريم، دار الفرقان، عمان ط3 1420هـ / 1999م.

عبد التواب، صلاح الدين محمد، النقد الأدبي – دراسات نقدية وأدبية حول إعجاز القرآن، دار الكتاب الحديث، القاهرة د.ط 1423هـ / 2003م.

عبد الجبار الأسد آبادي، القاضي أبو الحسن، المغني في أبواب التوحيد والعدل، قوَّم نصه على نسختين خطيتين أمين الخولي، مطبعة دار الكتب وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، القاهرة ط1 1380هـ / 1960م.

العكري الحنبلي، عبد الحي بن أحمد بن محمد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق عبد القادر الأرنؤوط، محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير ، دمشق ط1 1406هـ.

العمراني، يحيى بن أبي الخير، الانتصار في الرد على المعتزلة القدرية الأشرار، تحقيق سعود بن عبد العزيز الخلف، أضواء السلف ، الرياض د.ط 1999م.

العمري، أحمد جمال، مفهوم الإعجاز القرآني حتى القرن السادس الهجري دار المعارف، القاهرة د.ط د.ت.

الفيومي، محمد إبراهيم، المعتزلة – تكوين العقل العربي، أعلام وأفكار، دار الفكر العربي، القاهرة ط1 1423هـ / 2002م.

القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق هشام سمير البخاري دار عالم الكتب ، الرياض د.ط 1423هـ / 2003م.

لاشين، عبد الفتاح، بلاغة القرآن في آثار القاضي عبد الجبار واثره في الدراسات البلاغية، دار الفكر العربي مطبعة دار القرآن، القاهرة د.ط د.ت.

اللالكائي أبو القاسم، هبة الله بن الحسن بن منصور، شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة، تحقيق: د. أحمد سعد حمدان دار طيبة، الرياض د.ط 1402هـ.

مسلم، الإمام أبو الحسين بن الحجاج القشيري النيسابوري، المسند الصحيح ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت د.ط د.ت.

مسلم، مصطفى، مباحث في إعجاز القرآن، دار القلم، دمشق ط3 1426هـ / 2005م.

الندوة العالمية للشباب الإسلامي، الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، إشراف وتخطيط ومراجعة مانع بن حماد الجهني، دار الندوة العالمية.